إنعام الجندي

المتنبي والثورة

دار الفكر العربي

المتَنبّي وَالثورة

«المتنبي والثورة»

تأليف

انعام الجندي



دار الفكر العربي
بيروت



دار الفكر العربي

للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض

بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨

ص.ب: ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٢

تقديم

إذا كان لكل أمة شاعرها القومي ، فإن المتنبي ، دون كل الشعراء ، هو الذي تنطبق عليه صفة الشاعر القومي.

لا تعني هذه الصفة أن يذكر الشاعر أمته في بعض أبياته ، أو الانتساب إليها ، والافتخار بهذا الانتساب ، وتمجيد بعض انتصاراتها ، وتعظيم تاريخها ، وما أشبه من معان. وإن كانت هذه الصفة تشير إلى نزعة الشاعر القومي ، وتشف عن اتجاهه.

تعني صفة الشاعر القومية ، أن يجسد كل فضائل الأمة عبر التاريخ. وأن يخلق من تلك الفضائل نموذجاً حياً ، تتجلى فيه خصائصها ، واتجاهاتها نحو وجود — يمكن أن ندعوه أزلياً — تتجوهر فيه إنسانيتها وحضارتها وقيمها وقدرتها على البقاء والعطاء.

بهذا المعنى يتفرد المتنبي ، دون كل الشعراء ، فشعره يختزن ويختزل خصائص النموذج العربي ، عبر الزمن. إذ يعتلن هذا النموذج عبر أنماط حية ، أي أشخاص عاشوا في الفترة التاريخية التي عاشها أبو الطيب ، وعبر ذاته ، إذ كان يؤمن إيماناً حاداً حاسماً بأنه نموذج العربي ، في فترة ندرت فيها الفضائل.

أما تلك الأنماط الحية — أي الأشخاص — فأبرزها سيف الدولة ،

يليه في المنزلة أبو العشائر، وأبو شجاع — في مصر — وبدر بن عمار، وآخرون.

قيمة سيف الدولة — خاصة — أنه جسد أمرين أصيلين في نظر أبي الطيب:

١ — خلق نادر، في عصر انهارت فيه الأخلاق وانحدرت القيم، وابتعد الناس جميعاً عن الأصالة والجوهر، وصار الانحراف مفخرة وفضيلة. والأصالة هنا خصائص وأفعال متصلة بالجذور، أي بالتراث الخلقي والحضاري والانساني، الذي أبدع تاريخاً من الفعل والعطاء نادر الوجود.

٢ — طموح كبير إلى إجتثاث فساد المجتمع من أصوله، وإقامة بناء يكافيء الماضي العظيم، واسترجاعه بحاضر ومستقبل، لا يكررانه في جزئياته وحيثياته، وإنما يرتفعان إلى مستوى عظمته في الإبداع، ويتخطيانه بإبداع يتناسب مع طموح الأمة إلى البناء الحضاري المتقدم والمتطور.

كان كل شيء في حياة الأمة يوحي بالانهيار. فالتجزئة تجتاح الدولة من أقصاها إلى أقصاها، والدويلات الهزيلة منتشرة على كل مساحتها، والحكام أعاجم — خاصة في المشرق العربي — ما عدا الحمدانيين في الموصل وحلب. والخليفة إسم لغير مسمى، راضخ لسيطرة الحاكم الأعجمي — البويهيين يومذاك —، يتصرف به كما يشاء، يعينه، يخلعه، يقتله، يشرده.

والعربي معزول عن سلطته، مضطهد، منبوذ، إلا من ساوم الأعجمي — من العجمة أي عدم النطق بالعربية —، لا ينفعل

بالأحداث ، ولا يؤثر فيها ، وكأنما فقد صلته بأمته ، وبالوجود نفسه ، فهو صفر في معيار الوجود !

في هذا المناخ ، كان سيف الدولة وحده تقريباً ، يطمح إلى التغيير الشامل : القضاء على الفساد ، من جذوره ، وخاصة التجزئة ، وحكم الأعاجم ، وانهيار القيم ، وإعادة بناء الدولة الواحدة ، وتوحيد الأمة ، ورفع لواء الفضائل ، وتحقيق الذات العربية .

إذن كان سيف الدولة نموذجاً حياً ، لا متوهماً ولا متخيلاً ، وهذا ما يجعله ، في شعر المتنبي ، متصلاً اتصالاً حياً بالواقع والحياة ، على مرّ الزمن .

كان سيف الدولة يمثل ثورة لا تهدأ ، ورفضاً مقيماً لكل المعايير والأوضاع القائمة . ولهذا استحوذ على فكر المتنبي وخياله ، فكان عوناً له وحافزاً على اندفاعه في تيار الثورة والتغيير .

ولعل كون المتنبي ثائراً منذ مطالع صباه ، أسهم في تكوين ذاته ، وبلور في شعره خصائص الانسان العربي ، وجعله أكثر الشعراء ، تجسيداً لقيم الأمة العربية . بل هو الشاعر الوحيد الذي تتجسد فيه وفي شعره كل فضائل الأمة عبر التاريخ .

على أن الفضائل تجلت في مجموعات أحياناً . إنهم رفاق المتنبي في الثورة . وإنك لتعجب أن تجد صفاتهم ، في شعره ، نموذجاً ثورياً نادر المثال ، لا تجده في كل الكتب الحديثة التي تصف الثوار . وقد تفرد المتنبي في صفات الثائر والثوري — إذا جاز التمييز — إلا من خطرات عند أبي تمام وغيره . ولئن لم يفعل أبو الطيب إلا هذا ، لكان شعره في الثوار والثورة قيمة كبرى في معيار التنظير الثوري .

وتجدر الإشارة إلى صفات السلاح عامة ، والسيف خاصة ، على مستويين :

السيف كواقع متحيز ، يسمو إلى حد الشعور أنه إنساني ، أكثر مما هو معدن أو سلاح. والسيف كرمز للثورة والحرب والعنف ، ودون هذه المعاني ، لا قيمة للسلاح في وعي المتنبي.

والخيل ذاتها قريبة جداً من هذا المنظور. فالفرس رفيق المقاتل ، بل يكاد يشاركه أهدافه وتطلعاته.

لقد تحول كل شيء في وعي أبي الطيب إلى منظور الثورة : فهي المقياس الوحيد ، الذي تقيم الموجودات ، بشراً وأدوات ، على أساسه.

من هذا المنطلق كانت تجربتي في كتابة «المتنبي والثورة». لذلك كان لا بد أن أعتمد على شعر المتنبي وحده ، إذ لم أجد كتاباً تناول هذا الموضوع ، لا قديماً ولا حديثاً.

وقد اطلعت على المحاضرات التي ألقيت في مهرجان المتنبي الذي أقيم في العراق لسنوات خلت ، فوجدتها جميعاً تنحو المناحي القديمة في الشرح والتعليق ، ما عدا محاضرة الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا ، الذي نبه إلى روح المتنبي الثورية ، دون أن يوغل في عرض ثورته.

وثمة محاضرة شاءت أن تنسب المتنبي إلى الأسرة العلوية ، وأن توحي أنه ابن «الإمام» المدعو له — الفرقة الإسماعيلية — ، وكأنما أراد الكاتب من ذلك أن يقول : لا تقوم ثورة إلا إذا كان الثائر ينتمي إلى عائلة — ذات حسب ونسب — . ولم يكن في المحاضرة ما يغني ، ولا سند لها في شعر أبي الطيب ، أو في غيره ، فكانت أشبه بالرغبات أو التخرصات.

وقد رأيت بعض من كتبوا حول «نسب المتنبي العلوي» يفسرون أبياتاً

له تفسيراً «اعتباطياً» ، لا يستند إلى أي أساس لغوي أو فكري أو تاريخي أو واقعي ، ليفرضوا على أبي الطيب نسباً ، أو موقفاً ، لم يخطر له ، ولا كان يعنيه ، في جملة ما عني به.

أجزم أن كل ما قيل في هذا المجال ، لا يغير من حقيقة أساسية وهي أن أبا الطيب كان ثائراً عربياً ، لأنه وعى قضيته القومية ، وانطلق من هذا الوعي إلى العمل ، ولم يكن ذلك بسبب «علويته» — إن جاز القول — أو افترضنا أنه علوي — . وكل شعره ، وسيرته ، يدلان على منهج ثوري ، غير متصل بمذهب معين ، أو معطيات مذهب بعينه . وإذا قارنا بين منهجه وبين مبادىء أي اتجاه آخر ، وجدنا فروقاً كبيرة ، تميزه منها جميعاً روح الثورة ، التي تجلّت فيها القيم العربية ، قيم الانسان العربي ، وأهدافه ، وتطلعاته ، بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى.

كان معظم قادة الدويلات من مدّعي العلوية ، أو من العلوية فعلاً. وكانت ثمة فرق علوية — غير الغالية — ، فلماذا لم ينضوِ أبو الطيب تحت لوائها؟

لقد كان لقاؤه مع سيف الدولة ، وتعاونه معه ، لقاءً عربياً صرفاً ، ضد الروم والفرس ، وضد الدويلات التي مزقت الأمة ، ومن أجل توحيد الأمة في دولة واحدة. ولعل قوله :

وسوى الـروم خلف ظهرك روم
فـعلى أي جـانـبـيك تميـل

يؤكد الاتجاه العربي بما لا يقبل الشك.

هذا بينما كان الخلاف بينه وبين أبي فراس شديداً ، مع أن هذا علوي

المذهب ، كابن عمه وصهره سيف الدولة . ولو كانت «العلوية» الجامع ، لما كان خلاف بين الشاعرين الفارسين.

لقد اطلعت على الكثير مما كتب حول هذه الناحية ، بعد وضع كتابي . فلم أجد فيه ما يستوجب إعادة النظر.

لذلك أضع الكتاب بين يدي القارىء ، دون أي تغيير ، آملاً أن أكون أضأت جانباً من جوانب شخصية المتنبي وشعره ، لم يطرح من قبل.

وإذا كنت أعتبر المتنبي شاعر القومية العربية ، فإني أدعو كل العرب إلى جعل شعر المتنبي — وخاصة الثوري ، وما أكثره — جزءاً أصيلاً من مناهج التعليم ، يحفظ ويدرس ، لأن من شأنه أن يفجر القيم في الذات العربية ، ويردها إلى ينابيعها ، وينطلق بها إلى مستوى الفعل والعطاء.

آمل أخيراً أن أكون وفيت المتنبي بعض حقه.

المؤلف

— ١ —

لئن وقفت الكتاب على مسيرة المتنبي الثورية ، فإني مندوب إلى إلقاء ضوء على حياته وبيئته وظروف مجتمعه ووضع أمته. لا أبغي من ذلك عرضاً تقليدياً لحياته ، يقدم إلى دراسة جوانب شعره ، حسب المأثور من الدراسات الأدبية. ولئن ابتغيت إلقاء ذلك الضوء ، فلقناعتي أن تلك الأمور مؤشرات أساسية على نشوء الروح الثوري ، دون أن أهمل الطاقات الفردية ، والعوامل الأخرى المساعدة ، ولكي أزيل شوائب ، درج الدارسون على الأخذ بها ، ولا سند لها. ولو احتكموا إلى المقارنة ، والمنطق ، والعقل ، والشواهد الحقيقية ، لوجدوا أنهم مرغمون على رفضها رفضاً قاطعاً ، ولأدركوا أن معظمها مدسوس ، دسّه أعداء المتنبي ، خاصة الفرس ومن والاهم ، إبان تلك الفترة من سيطرتهم.

عرفت الأمة العربية ، تلك المرحلة ، تجزؤاً ، ترجع أسبابه إلى يوم قام الاسلام[1] .

---

(١) لعل الأسباب ترجع إلى ما قبل الاسلام. إلى يوم مات قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي. ورئيس دار الندوة. وبالتالي حلف قريش. لقد اختلف ولداه على الرئاسة. فقسم حلف قريش وظائف رئيس دار الندوة. بين الاثنين. وامتد النزاع إلى أولادهما وأحفادهما. فإذا قوي أحد الفرعين احتكر السلطات جميعاً. وكان الفرع الأموي هو

لا بد ، هنا ، من توضيح . وهو أن الإسلام ، وإن اعتلن ديناً ، ثورة عربية في مضمونها الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، توجهت إلى الوجود والمصير العربيين ، دون أن يجردها هذا المفهوم ، من مضمونها الإنساني الشامل. وأحسب أن كل ثورة ، لا تكون ثورة فعلاً ، إلا إذا انطوت على تطلع إنساني ، على أن هذا المضمون ، لا يكون إنسانياً إذا انطوى على أي هدر للجانب القومي . ومن هنا ، انتفاء التناقض بين القومي والانساني. بهذا المعنى كان الاسلام ، يوم نشأ ، حركة قومية عربية ، نهض بها الشعب العربي ، لأنها استجابة طبيعية لحاجاته ، وتطلعه إلى مصير أمثل .

كان هدف الاسلام الأول ، قومياً ، تحرير الأرض العربية ، والانسان العربي ، وإطلاق طاقاته ، وتحقيق مجتمع عربي واحد ، متناسق الجوانب ، اقتصادياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، يوائم بين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والفرد ، حتى لا ظلم ولا ظالم ولا مظلوم .

لذلك استهدف القضاء على استعمارين كبيرين ، هما الدولة الفارسية ،

القابض على زمام الأمور قبل الاسلام وفي مرحلة التبشير به ، حتى احتل المسلمون مكة . وكان زعيم هذا الفرع أبو سفيان والد معاوية ، وكان الفرع الأموي ، إلى ذلك ، يمثل رأس المال ، والسلطة ، بينما بنو هاشم أبناء عم أبي سفيان ، يمثلون المعارضة ، والجمهور الفقير ، المتشبث بالمثل والأخلاق...

فلما قضى المسلمون على زعامة أبي سفيان ، فقد الأمويون السلطة والجاه ، وإن لم يفقدوا المال . وظلوا يطمحون إلى السلطة .

وحين توفي النبي برز الخلاف بين الفرعين مجدداً ، مما هو معروف تاريخياً ، فحسم بخلافة أبي بكر ، ثم بخلافة عمر ، ولكن الخلافة آلت إلى عثمان الأموي ، فجعل معظم ولاته وقادته من الأمويين ، فلما آلت الخلافة إلى علي ، نهض معاوية لانتزاعها منه ، وأعلن نفسه خليفة في الشام .

والدولة الرومية ، اللتان اقتسمتا السيطرة على العرب ، وأرضهم ، أزماناً طويلة .

كما رمى إلى إزالة الحيف الداخلي ، والتجزؤ ، وهيمنة فئة متحكمة متمولة ، جرت العرب ، بتعاونها مع الاستعمارين الكبيرين ، إلى التنابذ والتناحر .

قامت قبل الإسلام حركات تحرر ، ضيق المستعمر حدودها ، وآفاقها ، وأجهض قدراتها . منها حلف قريش ، الذي بدأه قصيّ بن كلاب الجد الخامس للنبي .

لم يمض يسير زمن على بدء الدعوة الاسلامية ، حتى دمّر العرب الاستعمارين الفارسي والرومي . لم يسلس الروم أو الفرس وهم يرون انهيار دولتيهما ، فعملوا جاهدين على تدمير الدولة العربية ، من الداخل ، — إذ الفرس كانوا جزءاً منها[1] — ومن الخارج ، إذ لم ينقطع الروم عن مهاجمة أطرافها مئات السنين .

وكان نشاط الفرس أفعل ، ينخرون البنيان من الداخل ، مستفيدين من الأطراف المتنازعة ، ينتسبون إلى الحركات المناوئة للحكم ، ليمتطوها إلى مآربهم . إنضووا تحت لواء الحركة العلوية[2] ، ليقوضوا دعائم الدولة الأموية . ولكنهم أدركوا أن الحكم العلوي لن يكون إلا عربياً ، كما كان الحكم الأموي ، فتآمروا على العلويين — وقاعدتهم الشعبية واسعة — ودفعوا بالعباسيين إلى الصدارة — وقاعدتهم الشعبية ضيقة — ليستطيعوا بلوغ السلطة من وراء ستار . فالعباسيون مرغمون على الاستناد إلى

---

(١) كلمة دولة هنا بالمدلول القانوني .

(٢) الحزب السياسي الذي ينسب إلى علي بن أبي طالب .

الفرس ، دفعاً لأخصامهم ، والفرس يمارسون الحكم الفعلي . من هنا الصراع الطويل بين الخلفاء العباسيين ، وبين العرب والفرس ، كان فيه العرب يؤيدون كل خليفة يحاول استرداد السلطة السلبية . وسيذكر التاريخ دائماً سيرة أبي جعفر المنصور ، أول من قضى على النفوذ الفارسي . سار على خطاه الهادي والمهدي ، ثم هارون الرشيد حين قضى على البرامكة . ولكن الفرس استطاعوا التخلص من الأمين ، وجعلوا المأمون واجهة لسيطرتهم ، حتى انتقض عليهم ، وقضى على وزيره وكاتبه الفارسيين ، ومن والاهما .

وحين استقدم المعتصم الترك ، ظناً منه أنه بذلك يخلص من الصراع العربي ــ الفارسي ، التحق الفرس بالحركة الاسماعيلية ، وكانت ناشطة وسرية . حتى إذا بلغوا السيطرة على الخلافة ، عهد البويهيين ، كشفوا الحركة الاسماعيلية ، وقضوا على زعمائها ، إلا ثلاثة ، هرب أحدهم إلى المغرب لينشيء الحركة الفاطمية ، وهرب الآخران إلى اليمن ليبشرا بالدعوة الاسماعيلية . وكان ذلك في الفترة التي ولد فيها أبو الطيب المتنبي .

وقد عمد الفرس ، في ما عمدوا إليه ، إلى الاغتيال السياسي ، وكان لهم فيه سجل حافل . اغتالوا الخليفة عمر بن الخطاب . وكانوا بين من ثاروا بالخليفة الثالث واغتالوه . بل أكثر الروايات تجمع على أنهم القتلة ، ليخلقوا الفتنة في قلب الدولة العربية . وحاولوا اغتيال أبي جعفر المنصور . واغتالوا الهادي والمهدي . وقتلوا الأمين ، ولاحقوا محمداً ، أحد الزعيمين الاسماعيليين الهاربين إلى اليمن ، وقتلوه . هذا إلى اغتيال عدد غير قليل من قادة الحركة العلوية . وكانوا يلقون بالتبعة على الخلفاء العباسيين .

يندر ، كذلك ، أن تجد حركة تناويء السلطة ، إلا ومن الفرس فيها عناصر . اضرب مثلاً القرمطية . وكانوا دائماً يغدرون بهذه الحركات كلها

بلغوا السلطة. ولقد شوهوا ثورات، ودمروا أخرى من الداخل، وقضوا على غيرها. ثم من يسترجع تاريخ تلك الحقبة، يعرف أن محاولات ثورية عدة قام بها قادة عرب. أذكر الحمدانيين. ومنهم أبو الهيجاء، والد سيف الدولة، الذي احتل بغداد، وطرد الترك. ولكنه أخطأ خطأه الكبير، حين أبقى الخليفة العباسي، الذي تآمر، من بعد، مع الترك، لطرد أبي الهيجاء، وملاحقته حتى الموصل، حين جرت على أبوابها أقسى معركة، قتل فيها أبو الهيجاء، وأخوه سعيد الدولة، والد أبي فراس.

ولا ننس نشاط الفرس التهديمي، في مختلف الحقول: الثقافة، الدين، العلم، الفلسفة، اللغة، العادات والتقاليد، مما يذكره المؤرخون.

وتجدر الإشارة إلى توجيههم التأريخ، توجيهاً، ما نزال نعاني منه، في معرفة حقائق التاريخ العربي. ومن أسف، أن الكثيرين، من مؤرخي الأدب والتاريخ، ينهلون من تلك الأخطاء، دون روية، فإذا كتبهم حافلة بالزيف.

كان من ذلك كله، أن تجزأت الدولة، فالخلافة صورة، والدويلات مستقلة فعلياً، وإن كانت تابعة للخلافة إسمياً، تتناحر، ويعدو بعضها على بعض، لا يزجرها زاجر. والشعب ممزّق شرّ ممزق، ضائع، مشتت، لا يدري من يناصر ومن يخذل. فالعربي خصم العربي، والروم شركاء هذا القائد على ذاك.

تجدر الإشارة، كذلك، إلى التفسخ الاجتماعي والخلقي، على كل مستوى. وبروز طبقات فقيرة مدقعة، وأخرى ثرية مترفة مستغلة. من يرجع إلى كتب الفكر والأدب، يجد صورة واضحة لهذا التمايز. يكفي أن نسترجع ما ورد في مقدمة ابن خلدون عن قوانين الاقتصاد، لندرك إلى أي حد، بلغ التردي، الذي بدأ مسيرته، منذ عهد المتنبي، بل من قبل.

ولكي تكون الصورة واضحة عن الزمن الرديء الذي عاش المتنبي مأساته، فولد في ذاته روح الثورة، أضع بين يدي القارىء اللوحة المقيتة التالية :

لعل أول دويلة نشأت ضمن الدولة العربية العباسية، دويلة بني طاهر، نسبة إلى طاهر بن الحسين الخراساني، الذي قاد الجيش الفارسي للقضاء على الأمين، وتخليف المأمون. فقد ولاه المأمون خراسان وكل البلاد الواقعة شرقي بغداد، فاستقل فعلياً، وإن تبع مركز الخلافة في بغداد إسمياً، ومنع الدعاء للخليفة في الخطب أيام الجمع. ووسع أبناؤه، وعدد من عائلته نطاق دويلتهم حتى بلغت الهند، وجعلوا عاصمتهم نيسابور[1].

حل محل دويلة بني طاهر، الدويلة الصفّارية [٨٦٧ــ ٩٠٧م] التي هددت بغداد في خلافة المعتمد. ولكن عهد هذه الدويلة لم يطل إذ قضى عليها السامانيون[2].

وبنو سامان فرس زردشتيون آمنوا بالاسلام. كانوا عمالاً لبني طاهر. ملكوا سجستان وكرمان وجرجان وما وراء النهر وخراسان. استقلوا فعلياً، ودانوا اسمياً للخليفة. واستمرت دويلتهم حتى (٩٩٩م)[3].

وأنشأ الغزيويون الترك دويلتهم في غزنة. وأعظم ملوكهم محمود

---

(١) تاريخ العرب ــ فيليب حتي. ص ٥٣٦. [وجدت أن فيليب حتي يستند في سرد الوقائع إلى عدد من المؤرخين كالطبري، وابن خلكان، والمسعودي، وابن الأثير. لذلك اكتفيت بالإشارة إلى كتابه].

(٢) حتي ــ ٥٣٧.

(٣) حتى ص ٥٣٧ ــ ٣٨.

الغزنوي الذي استولى على بلاد البنجاب ، وملتان والسند ، واحتل قسماً من العراق واصبهان وخراسان وطخارستان وسجستان[1] .

وفي هذه الفترة نازع ابن المعتز المقتدر الخلافة ، وانتزعها وتسلم مقاليد الحكم ، ولكنه بقي فيه يوماً واحداً . ثم خلع وقتل[2] . وفي عهد الخليفة المقتدر عرف الحكم ثلاثة عشر وزيراً مات معظمهم قتلاً .

كذلك ، في عهد المقتدر ، ظهر عبيد الله الفاطمي في المغرب العربي ، وعبد الرحمن الثالث الأموي في الأندَلس .

وأسند المقتدر شؤون الدولة الى الخصميّ مؤنس المظفر ، رئيس حرسه . وقد خلع مؤنس المقتدر وعين أخاه القاهر خليفة . ولكن المقتدر عاد إلى الخلافة ثانية ، غير أن العساكر قتلوه وحملوا رأسه إلى مؤنس .

أما القاهر فقد كان حظه أسوأ إذ خلع عن العرش وسملت عيناه ، وعاش أيامه شحاذاً في شوارع بغداد .

وأصاب الخليفتين المتقي والمستكفي ما أصاب القاهر فقد أمر أمير الأمراء (أي قائد الحرس) بسمل عيونهما ، فعاشا يستعطيان أهل الاحسان .

وخطب لابن رائق (وقد غدا أمير الأمراء) مع الخليفة الراضي (٩٣٤ ـــ ٤٠) الذي قتله جنده[3] .

---

(١) حتي ٥٤٠ .

(٢) حتي ٥٤٤ .

(٣) راجع كل هذه الأحداث : حتي ص ٥٤٥ .

سنة ٩٤٥ ، استقبل الخليفة المستكفي (حكم سنتين من ٩٤٤ — ٦) . احمد بن بويه ، وجعله أمير الأمراء . وبنو بويه يدعون الانتساب إلى ملوك آل ساسان الفرس . وقد احتل البويهيون اصبهان وشيراز والأهواز وكرمان ، وزحف أحمد على بغداد فاحتلها وطرد الحرس التركي . وأمر بأن يخطب له مع الخليفة ، وأن تسك النقود باسمه .

وأمر أحمد بسمل عيني المستكفي ، وتعيين المطيع . وقد درج بنو بويه (٩٤٥ — ١٠٥٥) على طريقة مبايعة الخلفاء وإسقاطهم متى شاؤوا وكيف شاؤوا . وحكموا العراق والخلافة من عاصمتهم شيراز[١] .

ولعل أعظم البويهيين عضد الدولة الذي عين الخليفة الطائع ، وتزوج ابنته ، ثم زوجه بنته ، وهو يطمح إلى أن تؤول إليه أو إلى ذريته الخلافة[٢] . وهو أول من تسمى بشاهنشاه ، تلك المرحلة .

أما مصر ، هذه الفترة ، فقد حكمتها سلالتان تركيتان : الأسرة الطولونية ، والأسرة الأخشيدية .

أسس الأولى أحمد بن طولون ، واستقل عن الخلافة ، واحتل سوريا . وأنشأ جيشاً قوياً نواته من الترك والزنوج[٣] .

تولى الحكم بعده ابنه خمارويه الذي زوج ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد ، وفرض لها مهراً قدره مليون درهم وأهداها ألف هاون من الذهب عدا التحف النادرة . وقد مات اغتيالاً[٤] .

(١) حتى ص ٥٤٧.

(٢) حتي ص ٥٤٧.

(٣) حتي : ص ٥٢٧ .

(٤) حتي ٥٢٩.

عام ٩٣٥ وكل الخليفة الراضي أمر مصر إلى محمد بن طغج ومنحه لقباً إيرانياً أميرياً هو الأخشيد. وقد استقل بالأمر عن الخلافة واحتل سورية وفلسطين والحجاز.

تولى الحكم بعده ابناه ولكنهما كانا ضعيفين، وكان الحاكم الحقيقي هو كافور. وقد استمرت هذه الدويلة حتى سقطت مصر في يد جوهر قائد الجيش الفاطمي سنة ٩٦٩م (أي بعد وفاة المتنبي بأربع سنوات)[١]

مما يلاحظ من العرض السريع السابق أن حكام الدويلات جميعاً كانوا أعاجم (تركاً أو فرساً). ولم تقم من بينها كلها إلا دويلة واحدة عربية، هي دويلة بني حمدان في الموصل ثم في حلب، وأصلهم من تغلب.

كانت الموصل عاصمة دويلتهم، وكان أول أمرائها أبو الهيجاء، وخلفه عليها ابنه ناصر الدولة، بينما احتل سيف الدولة أخوه، حلب وحمص وأقام فيها إمارته.

ولعل أهم ما يشار إليه أن هذه الدويلة ــ لأنها عربية ــ تعاونت عليها كل القوى: البويهيون (فرس) الأخشيديون (ترك)، الروم، العباسيون، ولكنها صمدت قرابة سبعين سنة.

في تلك الفترة، وتلك البيئة، ولد أحمد بن الحسين الجعفي الكندي[٢]، في الكوفة، سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة (٩١٥م). أغلب الظن أن والدته توفيت وهو صغير، فربته جدته في كنف أبيه، العامل

---

(١) حتي ٥٣٠.

(٢) الجعفي: نسبة إلى قبيلة جعفى. والكندي: نسبة إلى محلة كندة في الكوفة.

البسيط المتعيّش من السقاية[1]. ولا صحة لزعم بعضهم أن أبا الطيب كان ينتسب إلى بعض الأشراف، يستدلون على ذلك بقوله:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ
كأنهم من طول ما التثموا مرد

فقد زعموا أن «الحق» الذي يطالب المتنبي به، إنما هو حقه بالخلافة، لأنه من الاشراف. وما أدركوا قصد المتنبي — والكثيرون جهلوا مقاصده الحقيقية — وهو أن هذا الحق هو حق العربي في حكم نفسه بنفسه.

تنقطع أخبار أبيه، وصلته به، مذ بلغ المتنبي العاشرة، أو الثانية عشرة — حسب بعض الروايات —. رحلت به جدته الى قبيلتها في ضواحي الكوفة، لتضمن له ولها العيش بين أخوتها وعشيرتها، وهو ميسور في القبيلة لكل فرد، ولو كان طارئاً.

كان لحياته في القبيلة — ومعظم القبائل العربية ناقمة على العباسيين وسيطرة البويهيين — وهم قادة الفرس آنذاك — أثر بالغ في تكوين شخصيته. تمرّس بالنقمة على الأوضاع السائدة، وبالفروسية وأصول الحرب، والخُلُق الأصيل، واللغة الصرف، إذ لغة القبائل لم يَشُبْهَا ما شابها في المدن من لحن.

لا يجحد، كذلك، أثر الفترة التي قضاها في مكاتب الوراقين[2]، فهي موضع يلتقي فيه المؤلفون، ويتداولون في شؤون الثقافة والفكر والعلم

(١) لم تكن الكوفة تشرب من النهر العكر. كان بعض أهلها يحملون الماء من آبار وينابيع قريبة يبيعونه من الناس.

(٢) المطابع ودور النشر مجتمعة في لغة اليوم.

والسياسة والاقتصاد والاجتماع. لا ريب أن المتنبي تميز بفضول المعرفة الذي عرف عنه منذ صغره، فكان ينصت، ويسأل، ويأخذ، ويستوعب.

ولا ينكر على الكوفة، ما حفلت به من نشاط سياسي محموم، فرضته ظروفها كمركز رئيسي من مراكز المعرفة، وقلب منطقة تضج بالثورات والحركات السياسية، ومنها العلوية، والقرمطية. ولعلها من المناطق التي كان العباسيون والبويهيون يخشونها دائماً. فلا تمر سنة إلا وفيها معركة أو أكثر. ألا يذكر المؤرخون أن والد المتنبي هرب به إلى بغداد خوفاً عليه — أو على نفسه[1] — من هجوم القرامطة المتوقع؟

لا ريب أن الشاعر أدرك، منذ البداية، مخاطر الثورات، وما يكتنف مصير الثوار من قتل وتشريد وإيذاء. ولا ريب أنه شهد مصائر العديدين، أو سمع عنها، أو قرأ. فإذا كل ذلك خميرة تكتنز بها ذاته، وتسهم في تكوين شخصه، واتجاهاته.

ولا ريب كذلك، أن أبا الطيب، كان ذكي الفؤاد، نبيهاً، طلعة، مؤمناً بذاته، معتداً بخصاله، فلا عجب أن يكتشف في نفسه، على حداثته، ذلك المنقذ المرجوّ.

يسخر بعضهم فيقول: أيعقل أن يفكر فتى في مصير بلاده، وفي الثورة، وهو في تلك السنّ المبكرة؟ فكيف به وقد بلغ به الطموح الى التفكير في الانقاذ وقيادة الثورات.

---

(١) قيل إن القرامطة حين تألبت عليهم كل القوى، وبدأت حركتهم تضعف، كانوا إذا احتلوا مدينة، قتلوا الرجال وأخذوا الفتيان والصغار لتنشئتهم على مسالكهم.

إعجبْ لمنطق هؤلاء! كأنهم لم يشهدوا هذا العصر الضاج بالثورات. ولا استرعاهم أن طلبة المدارس التكميلية والثانوية، كانوا دائماً وقود الثورات وغذاءها، وأن كل الثوار الذين نعرف بدؤوا تطلعهم الثوري، في مثل ذلك العمر. ألم يروا إلى أشبال الكفاح المسلح؟ في أي عمر ينضوون تحت لواء الثورة؟

ضربت هذا المثل البسيط، دحضاً لمزاعم أولئك، الذين لا يحبون أن يروا، ولا أن يعقلوا. وأنا على يقين، أن المرء، إن لم ينبت منذ صباه الأول، في أتون الثورة، لم تستطع نار الثورة أن تقتدح زناده، وقد جاوز الشباب.

أما كيف كان المتنبي تداخله القناعة أنه المنقذ، فأمر طبيعي واقعي. فالثائر، إن لم يشعر أن أعباء الأمة كلها ملقاة على عاتقه، لم يكن ثائراً يوماً. قد يبدو هذا الاحساس فردياً، ولكنه، في الحق، قومي، إذ لا بد أن يتصور أن كل أبناء أمته يجب أن يحملوا العبء ذاته، وأن ذلك شرط الثورة، وشرط القدرة على النضال والتحرير.

كان المتنبي، تلك المرحلة ينظر إلى واقع أمته الفاسد العجيب، فيتولاه يأس كبير، فيمل المقام، ولم تُرْمِ سنّه على العشرين:

وما أرمت على العشرين سني
فكيف مللت من طول البقاء[1]

غير أن إيمانه الكبير بذاته وأمته، كان الحافز على التمرد، ورفض الواقع، وتصحيح الأوضاع:

---

(١) أرمت: زادت.

إلى أي حين أنت في زي محرم
وحتى متى في شقوة وإلى كم؟

ليس الإحساس باليأس ، بمستغرب في مثل ظروف عصر المتنبي. بل هو صنو التفكير الجدي في واقع الأمة ، ومصيرها.

حين ينظر الثائر المتوحد ، إلى الواقع المتخلف ، المتردي ، ويرى إلى انهيار المجتمع من جذوره ، وتصدع الحركات الثورية ، التي كانت أملاً ، إلى حين ، واستشراء ذوي السلطان ، ظلماً وبغياً وعتواً ، وتكالب القادرين مادياً على المنافع الفردية ، وتحللهم من كل مسؤولية تجاه الشعب ، وانحسار الذات في الأفراد والجماعات. حين يرى إلى كل ذلك ، يشعر باليأس القاتل ، فهو وحيد ، ومع ذلك ، عليه أن يبدأ من الصفر ، غير أن قدره وضعه هذا الموضع ، ولا بد أن يبدأ ، فإن لم يفعل ، لم يقم مكانه من يقوم بالفعل.

بل لعل التوحد ، في الظروف المصيرية الحاسمة ، شرط الإقدام. من هنا كان حمل المسؤولية ، مسؤولية مصير الأمة ، شرط بقاء المتوحد ووجوده.

كان المتنبي وحيداً . وكان واحداً ، في جهة ، ووضع الأمة بكل عناصر فساده ، في الجهة الثانية. وكان عليه أن ينقل ذلك الوضع الى جهته.

المعادلة شرسة وقاسية. ولكنها الواقع ، ولا مناص من مواجهتها. ومن يتنطح لذلك ، لا بد أن يفعمه شعور بالرفعة والتميز. ذلك كان إحساس المتنبي :

أي محل أرتقي أي عـــــظيم أتقي

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

لم يكن هذا الشعور بالتميز وليد كبرياء فارغة، أو عجرفة مصطنعة. بل إحساس صادق، واثق، شدّد عليه أبو الطيب في أكثر من مجال، في مختلف مراحل حياته، وخاصة في مطلع عمره، فهذا هو يعلن دون مواربة:

أَمِطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنه
فما أحد فوقي وما أحد مثلي[1].

سبب ذلك، أنه كان، حيث تلفت، ألفى الخنوع والتردي والتصدع. وألفى الاستجابة لكل دعوة خيرة، الجحود والتنكر:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود.

ألم يواجهه القوم بالاستنكار والاستغراب، بل بالسخر والاستهزاء، حتى نعتوه، لتطلعه إلى ما يعجزون عنه، ويظنونه مستحيلاً، بالمتنبي؟ والكلمة مشتقة من «تنبأ»، أي طلب «النَّبْوَة» وهي المرتفع! وليست مشتقة من «النُّبُوَّة» — كما زعم بعضهم — فالاشتقاقان متباينان[2].

لقد استخف به قومه، إذ ظنوا أنه يطلب محالاً. فنبذوه، وطرده بعضهم، وهمّ غيرهم بقتله، فقال فيهم:

---

(١) امط: انزع.

(٢) راجع رسالة الغفران للمعري. شرح وتحقيق د. علي الشلق، دار القلم ص ٢٠٦—٢٠٧.

ما مقامي بأرض نخلة إلا

كمقام المسيح بين اليهود

بدأ دعوته برفاقه. فليس للثائر أن يظل متوحداً معزولاً. واستجابوا لدعوته. ولكنه ما وسّع نطاقها حتى بدأ يصطدم بالجحود والاستخفاف. وكأني بالقوم كانوا يقولون، سراً أو علانية: ما هذا الفتى والتطلع إلى مثل هذه الأمور الجسام؟

لم ينثن! بل جهد ورفاقه على التدرب والتمرس بأصول القتال، فها هو يصف هؤلاء الرفاق:

سأطلب حقّي بالقنا ومشايخ

كأنهم من طول ما التثموا مُرْد[1]

ثقال إذا لاقوا، خفاف إذا دعوا

كثير إذا شدّوا، قليل إذا عدّوا[2]

وفي مكان آخر:

---

(١) المشايخ: ج. الشيخ: نعت يطلق على المجرب في الحرب. — المرد: ج. الأمرد، وهو من لم ينبت شعر ذقنه. — معنى البيت: سأقاتل في سبيل غايتي بالرماح وبرجال مجربين في الحرب، لا ينزعون اللثام عن الوجوه فكأنهم مرد، وذلك لأنهم في حرب دائمة. — والقصد: سأحارب في سبيل تحقيق حق العربي في حكم ذاته، بثوار، الحرب من طباعهم فلا ينتهون من معركة حتى يبدؤوا معركة جديدة.

(٢) ثقال إذا لاقوا: شديدو الوطأة على أعدائهم في الحرب. — خفاف إذا دعوا: يلبون دعوة الثورة سريعاً. — كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا: إذا حملوا على الأعداء حسبتهم كُثُراً لضعفهم في القتال، ولكن عددهم الحقيقي قليل. — يبرز المتنبي هنا معنى التحام المقاتل بالثورة، ومعنى العنف الثوري.

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى أدلت له من دولة الخدم [1]

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم [2]

وكلما نطحت تحت العجاج به
أسد الكتائب رامته ولم يرم [3]

أدع التعليق على هذه الأبيات، إلى حين.

كان الرفاق قلة في البدء، ثم تكاثروا. ونهض المتنبي للدعوة، في زي الشاعر، يقصد الأمراء والقادة، يمدحهم وينال جوائزهم. ولكنه تقصّد منطقة بعينها، تمتد بين الكوفة والسلمية، حتى المعرة وما حولها. وقد تميزت هذه البقعة، تلك الفترة، بالنقمة على الخليفة العباسي، والبويهيين. ولا ننس السلمية نفسها، فقد كانت موطناً للحركة الاسماعيلية التي فجعت بأعز قادتها وأبنائها، حين بلغ البويهيون السيطرة على الخليفة، فكشفوا الدعوة الاسماعيلية ورجالها، — وكانوا منهم — فقتلوا من قتلوا، وشردوا من شردوا، وهرب من هرب. لذلك كانت السلمية تتطلع إلى ترميم أجهزة الدعوة، وربما إلى قيادة جديدة، مستورة، تنشط بها ومعها، ضد من غدروا بها، ومن أجل تحقيق أهداف الحركة الاسماعيلية [4].

---

(١) و(٢) و(٣) ستشرح مع قصيدتها.

(٤) كانت الحركة الاسماعيلية أحد شطري الشيعة. دعيت بذلك نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق، الذي اعتبرته صاحب الدعوة، لا أخاه موسى الكاظم، الذي اختاره الشطر الثاني — الاثناعشرية — صاحباً للدعوة. وقد تشعبت الإسماعيلية إلى عدة فرق، يربو عددها اليوم على اثنتي عشرة فرقة.

لا عجب ، إذن ، أن يؤمها أبو الطيب ، داعياً إلى حركته ، وقد توسم فيها بؤراً ثورية ، قد تكون دعامة وسنداً . والحق أن المتنبي لقي قبولاً وتأييداً كبيرين ، بدليل أنه ، ما مضت عليه سنتان ، في تلك الرحاب ، حتى فكر جدياً ، بالنهوض بالثورة . وقد أيده التنوخيون ، ممن كانوا يقطنون الرقعة الواقعة بين السلمية والمعرة وما حولها . يكفي أن نذكر صلته بالحسين بن اسحق التنوخي ، الذي حاول المغرضون أن يفسدوا بينه وبين أبي الطيب ، فلم يفلحوا . فلقد نظم بعضهم أبياتاً في هجاء الحسين ، ونسبوها الى أبي الطيب ، فكذب هذا ما نسب اليه ، مادحاً ، لائماً في الوقت نفسه :

وهاجي نفسه من لم يميز
كلامي من كلامهم الهراء...
وإن من العجائب أن تراني
فتعدل بي أقلَّ من الهباء
وتنكر موتهم وأنا سهيل
طلعت بموت أولاد الزناء

يستوقفنا بيت آخر في القصيدة ، لأنه يشير إلى عمر المتنبي آنذاك ، مما يدل على أنه نهض للثورة وهو في مطالع الشباب :

وما أرمت على العشرين سني
فكيف مللت من طول البقاء...

قرر المتنبي البدء بالثورة . أعلن ذلك ، في قصيدة شهيرة ، هي في الواقع بيان سياسي ، من مثل تلك البيانات التي يذيعها قادة الثورات ،

حين يعلنون بداية الكفاح. أورد القصيدة، منذ انتهاء مقدمتها الغزلية التقليدية، لدلالتها على ما قلت، أي أنها بيان سياسي، ولأحلل العناصر المختلفة فيها، فهي تنبىء عن جوانب هامة، مما نهض له أبو الطيب:

ليس التعلل بالآمال من أربي
ولا القناعة بالاقلال من شيمي[١]
ولا أظن بنات الدهر تتركني
حتى تسدّ عليها طرقها هممي[٢]
لُمِ الليالي التي أخنت على جدتي
برقة الحال، واعذرني ولا تلم[٣]
أرى أناساً ومحصولي على غنم
وذكر جود ومحصولي على الكَلِمِ[٤]

---

(١) التعلل: التمني. — الأرب: القصد. — الإقلال: الفقر وقلة ذات اليد. — الشيم: ج الشيمة وهي الخلق والطبع. — ينفر طبعي من الأماني المجردة، ومن القناعة بواقع الحال المر، فأنا أعرف ما أريد، وأحققه. — [يؤكد هذا المعنى البيت التالي].

(٢) بنات الدهر: مصائبه. — الهمم: ج الهمة وهي الإرادة والعزيمة. — أعرف أن دون ما أطمح إليه وأرخص النفس له مصائب وأهوالاً، ولكن إرادتي تتخطى كل العقبات إلى الهدف.

(٣) أخنى عليه: أهلكه. — الجدة: كل ما يحوز المرء من مال وغيره. — رقة الحال: الفقر وقلة الملك. — لا عار إن كنت فقيراً، غير ذي ملك، فليست قيمة المرء بمال أو ملك. — [يؤكد هذا المعنى البيتان التاليان].

(٤) ما أكثر الناس ولكن معظمهم كالغنم تنقاد لمن يسوسها فلا تمرد ولا رفض. وما أكثر ما يتفاخرون بالجود، ولكني لم ألق جواداً حقاً، مستعداً للتضحية في سبيل هدف.

وَرُبَّ مـال فقيراً مـن مـروءتـه
لم يُثْرِ منها كما اثرى من العُدُم [١]

سيصحب النصل مني مل مضربه
وينجلي خبري عن صِمّة الصِّمم [٢]

لقد تصبرت حتى لات مصطبر
فالآن أقحم حتى لات مقتحم [٣]

لأتـركـنّ وجـوه الخيـل ساهمة
والحرب أقوم من ساق على قدم [٤]

والطعن يحرقها والزجر يقلقها
حتى كأن بها ضرباً من اللمم [٥]

---

(١) فالمتمول لا مروءة له ، ولم ينفعه ثراؤه بعد فقر ، ما دام فقيراً إلى الكرامة . أي ما نفع صاحب المال ولا مروءة له .

(٢) النصل : شفرة السيف .— مضربه : حدّه .— الصمة : الشجاع ، جمعها الصِّمَم .— سأنطلق في ثورتي ماضياً في الأمور كحد السيف ، وسيعلم الناس جميعاً أني أشجع الشجعان . يؤكد المتنبي هنا ثوريته التي ترفض الوقوف عند حد ، وتتخطى كل العوائق إلى الغاية المنشودة .

(٣) صبرت طويلاً ، والآن أقدم إقداماً لا نكوص بعده .— [تلك صفة من صفات الثوري ، يتحدى ويقدم ولا يتراجع مهما كانت العواقب] .

(٤) ساهمة : متغيرة ضامرة .— أقوم من ساق على قدم : شديدة لا تبقي ولا تذر .— سأثيرها حرباً شعواء عنيفة تتغير وجوه الخيل فيها وتضمر لعنفها .— [وتلك من صفات الثورة الحمراء] .

(٥) الزجر : هنا الصياح .— الضرب : الصنف .— اللمم : الجنون .— يصف حال الخيل في المعركة الشديدة ، فإذا هي كأنما أصابها جنون لما تلاقي من طعن ، وما يثيرها فيقلقها من صراخ .— والقصد إبراز عنف المعركة .

قد كلمتها العوالي فهي كالحة
كأنما الصاب مذرور على اللجم(١)

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى أدلت له من دولة الخدم(٢)

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم(٣)

وكلما نطحت تحت العجاج به
أسد الكتائب رامته ولم يرم(٤)

---

(١) العوالي : صدور الرماح .— كالحة : مكشرة عابسة .— الصاب : نبات مرّ .— جرحتها رؤوس الرماح ، فعبست مكشرة عن اللجم ، كأنما رشّ الصاب على تلك اللجم .— صورة أخرى من صور عنف المعركة .

(٢) المنصلت : السيف المسلول . يشبه به الثائر المحارب الماضي في الأمور .— ما زال منتظري : كان ينتظر ساعة إعلان الثورة للقضاء على الحكام .— أدلت له : نصرته وجعلت الدولة له . وتروى : أدلت به : أي نصرني لاستلام السلطة .— دولة الخدم : الدولة العباسية . نعتها بذلك لأنها كانت خاضعة للبويهيين .— معنى البيت : الآن أقحم بثوار انتظروا طويلاً إعلاني الثورة للقضاء على الحكم العباسي وإقامة دولتي .

(٣) الشيخ : المجرب في الحرب .— النافلة : الزائدة على الحد المفروض .— معنى البيت : ذلك الثائر مجرب في الحروب ، لا يبالي العواقب ، ولا يقيم وزناً إلّا للعنف الثوري في سبيل الغاية المثلى .— [لا بد هنا من ملاحظة : بعض مفسري هذا البيت قالوا إن المتنبي كفر . وبعضهم قال إن وصفه أعوانه على هذا النحو أقرب إلى الهجاء . وما فطنوا إلى أنه أراد إظهار ما يتحلى به الثائر من إيمان بالعنف ، مستخدماً تعبيراً تستعمله العامة حتى اليوم ، فتقول في وصف الشجاع المقدام الذي لا يخشى العواقب : إنه لا يحلل ولا يحرّم] .

(٤) نطح : صدم ، هوجم .— العجاج : الغبار .— رام : زال ، مال عنه .— معنى البيت : يتابع المتنبي وصف رفاقه في الثورة فيقول : إن الجيوش تحيد عن دربه خوفاً من عنفه .

تـنسي البلاد بـروق الجوّ بارقتي

وتكتني بالدم الجاري عن الديم [1]

ردي حياض الردى يا نفس واتّركي

حياض خوف الردى للشاء والنعم [2]

إن لم أذرك على الأرماح سائلة

فلا دعيت ابن أم المجد والكرم [3]

أيملك الملك والأسيـاف ظـامئة

والـطير جائعة لحم على وضم [4]

من لو رآني ماء مات من ظمأ

ولو مثلتُ له في النوم لم ينم [5]

---

(١) البارقة : البرق.— الديم : جمع ديمة : وهي المطر يدوم أياماً ، وقيل السحابة الممطرة.— معنى البيت : ينعت ثورته بالبارقة لعنفها ودهشة الناس لها. ويؤكد أنها ثورة دامية ، تروي الأرض بالدم لا المطر.

(٢) ردي : أمر من ورد.— الردى : الموت.— الشاء : الغنم.— النعم : الإبل والماشية عامة.— معنى البيت : خوّضي يا نفسي في رحاب الموت واتركي الخوف لمن كان كالحيوان.— ملاحظة : وردت كلمة حياض بالخاء في بعض النسخ.

(٣) أذرك : أدعك.— معنى البيت : إن لم أمت برؤوس الرماح في معركتي من أجل قضيتي ، فلست جديراً بما أدعيه من مجد وكرم.

(٤) الوضم : خشبة اللحام يقطع عليها اللحم.— لحم على وضم : كناية عن الضعف الشديد.— الاستفهام هنا إنكاري.— معنى البيت : كيف يجوز أن يحكم من لم يخلق محارباً ، ولا يجرد سيوفه في طلب الحق ، ويدع الطيور جائعة ، لا تقتات من جثث الأعداء.— القصد : الحكم للثائر المحارب ، ومن طبعه الحرب ، لا للضعفاء.

(٥) وردت «مثلت» «عرضت» في بعض النسخ.— معنى البيت : يتابع الفكرة في البيت السابق فيقول : كيف يملك من لو رآني ماء مات ظمأ ولم يجرؤ على الاقتراب مني. ومن لو رآني في الحلم طار نومه من خوفه.

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً
ومن عصى من ملوك العرب والعجم(١)

فإن أجابوا فما قصدي بها لهم
وإن تولوا فما أرضى لها بهم (٢)

قلت إن هذه القصيدة بيان سياسي ، يسبق القيام بالثورة ، والبيانات السياسية في مثل هذه الحال ، تحدد المواقف : موقف الثائر من الآخرين ، موقفه من رفاق الكفاح ، موقفه من الأهداف التي يتطلع إليها ، ثم سبيله إلى تحقيق تلك الأهداف. فما هو شأن المتنبي هنا؟

لا سبيل إلى إنكار إعلانه بدء الثورة — وإن قبض عليه قبل ذلك مما سأذكره بعد حين — فهو يحدد دون لبس موعد الثورة ، وغايتها :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً
ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم
وإن تولوا فما أرضى لها بهم

تهدف هذه الثورة إلى القضاء على الملوك من عرب وعجم ، لأنهم

(١) يحدد موعد الثورة فيقول : غداً موعد الثورة ومن سيحاول الوقوف بوجهها من ملوك العرب والعجم.

(٢) إن أطاعوا تركتهم إلى غيرهم ممن سيحاول العصيان. وإن عصوا فإني غير قانع بقتلهم وحدهم ، فسأقتل كل من رأى رأيهم.

يمثلون السلطة الغبية الشرسة، المستشرية، المستغلة، الحاقدة، الجبانة. يصفها في موضع آخر بقوله:

أرانب غير أنهم ملوك

مفتحة عيونهم نيام

هؤلاء الملوك أصنام، ولكنهم يفتقرون إلى عفة الصنم، الذي يفضلهم لما في نفوسهم من جشع وخسة:

أسيرها بين أصنام أشاهدها

ولا أشاهد فيها عفة الصنم[1]

هؤلاء الملوك، في وعي المتنبي، يمثلون التجزئة، قبل كل شيء، ولذلك يتطلع إلى القضاء على «دولة الخدم» [أي الدولة العباسية]، ليقيم بأعوانه دولة جديدة، إن لم يعرض ملامحها، فإننا نستطيع استخلاصها، مما كان ينتقده ويرفضه. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كان دستور الدولة، القرآن الكريم، ولكن الخليفة والملوك، لم يكونوا ليتقيدوا به، أو لينفذوا مبادئه. وأحسب أن المتنبي لم يخطر له تغيير دستور الدولة، وإنما تغيير بنيتها، وبعثها على أسس من العدل، والسيادة، والطموح إلى الأمثل، والخلق الكريم. فهو يريد انتزاع الدولة من حكامها «الخدم»، إنهم غير قادرين على الحكم، وعلى توطيد السيادة العربية، راضخون لهيمنة ملوك، ليس فيهم إلا الجبان. فهذا يريد القضاء عليهم جميعاً، فإما أن يستجيبوا لدعوته، وإما أن يقضي عليهم وعلى من يعترض سبيل ما يرمي إليه. وفي ذلك تنبيه واضح إلى فكرة الوحدة، فهو يشير إلى أمرين: انتزاع الخلافة،

---

(١) الضمير في أسيرها عائد للإبل في بيت سابق.

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى أدلت له من دولة الخدم

ثم القضاء على جميع الملوك إلّا إذا استجابوا لدعوته وأسلموه زمام إماراتهم :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً
ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فإن أجابوا فما قصدي بها لهم
وإن تولّوا فما أرضى لها بهم

ولكن ، لِمَ يخشى الملوك أبا الطيب؟ ألأنهم جبناء فحسب ، يملكون المال والسلاح ، ولكنهم أدنى من أن تخامرهم المطامح؟

الحق ، أن الحكومات في كل عصر ، تخشى الثوار ، لأنهم يمثلون القوة التي تهدد مصيرها وملكها وبقاءها . وكانت ثورة المتنبي حمراء تدرك أن طريقها معبدة بالدم ، فلا مجال لمساومة أو تهاون — فالعدو شرس ، ولا يؤخذ الحق إلا بالقوة :

تنسي البلاد بروق الجو بارقتي
وتكتني بالدم الجاري عن الدِّيَم

وإذا كان العدو شرساً ، فهو جبان ، بل هو شرس لأنه جبان ! ومأتى جبنه أنه مغتصب ، سرق من الشعب حقه في حكم نفسه ، وانتهب ثرواته ، فحصن بها نفسه وملكه ، ولا مطمح له إلا الحرص على مغانمه :

أيملك الملك والأسياف ظامئة
والطير جائعة لحم على وضم

لذلك كان الملوك يخشون ثورة المتنبي ، ويقلقهم انتشارها واتساعها ، فلا يعرفون راحة في نوم أو يقظة :

من لو رآني مـاء مات من ظـمأ
ولـو مثلت له في الحلم لم ينم

على أن أبا الطيب ، كان يدرك أن وجوده في الميزان ، وأن الاستشهاد أقرب إليه من حبل الوتين. ولكنه لم يخامره تراجع ، ولا صبت نفسه إلى الحياة. يؤمن الثائر دائماً بالموت طريقاً إلى النصر. بل يكاد يؤمن بالموت وحده ، في سبيل ما نذر نفسه له ، لا لجلجة ولا اضطراب :

ردي حياض الردى يا نفس واتّركي
حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة
فلا دعيت ابن أمّ المجد والكرم

مهنة الثائر الأولى الموت. والموت في معركة مصيرية ، غاية ما يصبو إليه ، فلا عجب أن يكون هدف المتنبي أن تسيل نفسه على الأرماح ، وإلّا لم يكن ثائراً حقيقياً : « فلا دعيت ابن أم المجد والكرم. » وأم المجد والكرم الحرب والثورة.

من هم الثوار من رفاقه؟

كلهم على مثل الصفات التي تحلى بها. تخيّرهم تخيراً دقيقاً ، فعل الحركات الثورية العظيمة ، وأبرز ما يتميزون به ، أن كل فرد منهم مثل حد السيف ، يمضي في الأمور ويقطع ، لا يريم ، ولا يتراجع ، ولا

يتخاذل، وكلما اشتدت الأمور، ازداد ثقة بالنفس، وإصراراً على الاقتحام، ورغبة في الموت:

وكلما نطحت تحت العجاج به
أسد الكتائب رامته ولم يرم

وهو نموذج الثوري، المتميز بالعنف، العنف في الإقبال على الموت، والعنف في القضاء على خصومه، خصوم ثورته وأهدافها، وكانت القضاء على دولة الخدم، لتحرير البلاد منها:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم

لا بد هنا من التنبيه إلى أن بعض شراح هذا البيت، قالوا إن المتنبي كفر، في حديثه عن الصلوات الخمس، وتحليل دم الحجاج، وما خطر لأبي الطيب أن يفكر في الكفر أو الإيمان، في مثل موقعه وموقفه. إنما قصد التعريف بصفات الثائر من رفاقه، الذي جعل قدره في الموت أو القضاء على أعداء شعبه. وما قوله حول الصلوات وتحليل دم الحجاج، إلا كقول العامة حين تريد وصف مقدام: «لا يخاف ربه» أو «لا يحلل ولا يحرم». وما تقصد إلا التشديد على معنى العنف وعدم التراجع.

ثمة سؤال: هل أساء المتنبي الظن بالشعب، حتى قال:

أرى أناساً ومحصولي على غنم
وذكر جود ومحصولي على الكلم
ورب مال فقيراً من مروءته
لم يثر منها كما أثرى من العدم

كان المتنبي يميز بين نوعين من أبناء الشعب : الثائر ، وتتمثل صفاته في رفاقه ، وهم القلة الطليعية . والخانع ، ممن استسلم للفساد والظلم ، وأعيا على التمرد والثورة ، ويمثل الكثرة الساحقة . وكان المتنبي يكره أولئك «الحياديين» الذين يزعمون أنهم «أناس طيبون» ، لا يؤذون أحداً ، ويتحاشون أن يؤذَوا . هؤلاء ، في نظره أخطر على الثورة ، من خصمها المباشر ، لأنهم ينشرون روح الخنوع والذلّ والسكوت على الظلم والفساد . وقد نعت أبو الطيب هذه «الطيبة» بلؤم الطبع .

يرى الجبناء أن العجز عقل
وتلك مشيئة الطبع اللئيم

ثمة مقياس واضح : إما أن تكون ثائراً وإما أن تكون جباناً تافهاً :

وحبُّ الجبانِ النفسَ أورده التقى
وحبُّ الشجاعِ النفسَ أورده الحربا

أجل ! الجبان يتذرع بالتقية ، في سبيل بقاء ولو ذليلاً . والشجاع يعرف أن مصيره الحرب «الثورة» ، ولا خيار له غيرها .

ولقد هاجم المتنبي الخنوعَ في أكثر من مجال ، ربما لإثارة النخوة ، وبعث روح الثورة ، راسماً في مقارنة مقصودة ، صورة وهاجة عن الثائر :

أذم إلى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم
وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد
سأطلب حقي بالقنا ومشايخ
كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا، خفاف إذا دعوا

كثير إذا شدّوا، قليل إذا عدّوا

كذلك لا بد من الإشارة إلى كلمة «وذكر جود ومحصولي على الكلم» التي فسرّها بعضهم: «الجود بالمال» وبالتالي فإن المتنبي لم يكن يحصل من ممدوحيه إلا على القليل، أو الوعود. وأبو الطيب هنا، إنما يرمي إلى الجود بالمعنى المطلق، كالجود بالنفس، والتضحية، وكأني به يشير إلى أولئك المثرثرين الادعياء، الذين يقلقون الدنيا بنقدهم واتهامهم، ولكنهم لا يجرؤون على التضحية ولو بفضل من راحتهم وترفهم! ولعل البيت التالي يوضح المعنى الخلقي المقصود في هذا المجال:

وربَّ مال فقيراً من مروءته

لم يثرِ منها كما أثرى من العدم

الفقر هنا فقر من المروءة، ولن ينفع في حجبه أو تفاديه مال الدنيا.

أخلص إلى القول إن هذه القصيدة بيان سياسي، حدد فيه المتنبي الهدف، وهو القضاء على دولة الخدم، وعلى من عصى من ملوك العرب والعجم، من أجاب ومن لم يجب، في سبيل دولة عربية، يبنيها ورفاقه الثائرون، المناضلون. يستشهدون، لا تخامرهم فكرة البقاء، بل تفعم رؤوسهم فكرة الاستشهاد في ما أزمعوا عليه.

هذا الموقف الثوري، غير مقصور على هذه القصيدة، فثمة أبيات ومقطوعات، تنبيء جميعاً بما أنبأت به. الفرق الوحيد هو أن القصيدة بيان يعلن بدء الثورة، ويحدد أهدافها وغاياتها. بينما تلك تنشر مبادىء، وتعلن مواقف، هذا أبو الطيب يردّ على معاذ الصيدواني، وكان سخر من تطلعاته، وما حمل نفسه عليه:

أبـا عـبـد الإلـه مـعـاذُ إني
خفـيٌّ عنك في الهيـجا مقامي
ذكـرتَ جسيم مـا طـلبي وأنَّا
نخاطـر فـيـه بـالمهج الجسام
أمـثلي تـأخـذ الـنكبات منه
ويجزع من ملاقـــــاة الحمام
ولـو بــرز الـزمان إليَّ شخصاً
لخضب شعـر مـفرقه حسامي
ومـا بـلـغت مشـيئتها الليالي
ولا سارت وفي يـدها زمـامي
إذا امـتلأت عـيون الخيل مني
فـويـل في الـتـيـقـظ والمنام

تستوقفنا عدة أفكار في هذه الأبيات: فما ورد في البيت الثاني، يشدد على «جسيم المطلب»، وعلى التضحية الجلّي في سبيله» نخاطر فيه بالمهج الجسام». فإذا ربطنا بين جسيم المطلب «وبين قول سابق «أدلت له من دولة الخدم» أدركنا الهدف والمطمح. كذلك الأمر بين «نخاطر فيه بالمهج الجسام» وبين قوله: «ردي حياض الردى يا نفس واتركي...» فالتوكيد على التضحية إلى حد الاستشهاد، غير خفي.

كذلك قوله:

ومـا بـلـغت مشـيئتها الليالي
ولا سارت وفي يـدها زمـامي

هو تركيز على أن الثائر سيد قدره ، لا يدع للأقدار أن تتصرف به ، ولا يتيح زمامه للصدف ، فإيمانه وأهدافه ، وتصميمه ، تجعله في مواجهة الخطر ، كل لحظة. وهذا شبيه بقول سابق ، في القصيدة — البيان :

ولا أظن بنات الدهر تتركني
حتى تسدَّ عليها طرقها هممي

نلاحظ كذلك التوافق بين قوله :

إذا امتلأت عيون الخيل مني
فويل في التيقظ والمنام[1]

وقوله :

من لو رآني ماءً مات من ظمأ
ولو مثلت له في النوم لم ينم

القولان يؤكدان على أمر واحد ، وهو أن ثورته حمراء ، لأن الثورة إن لم تكن كذلك ، لم تكن إطلاقاً.

مثل هذه الأفكار تتردد كثيراً ، هذه الحقبة ، من حياة المتنبي في التحضير للثورة. ولا بد أن نلاحظ ما ألزم به أبو الطيب نفسه ، من مسلك صعب ، فلا شراب ، ولا نساء ، ولا لهو ، ولا عبث. فذهنه ونفسه وقلبه ، ممتلئة بأمر واحد هو الثورة. سئل أن يشرب فقال :

---

(١) الخيل : هنا مجاز مرسل. والمقصود الفرسان.

ألــــذ من المدام الخنــــدريس
وأحلى من مـعـاطـاة الـكـؤوس
مـعـاطـاة الصـفـائح والـعوالي
وإقـحامي خـميساً في خـميس
فموتي في الـوغى عـــيشي لأني
رأيت الـعيش في أرب النفوس

لاحظ هذا العيش الذي يطلبه أبو الطيب. إنه الموت في الوغى ، في سبيل أرب النفوس. وما الأرب بمطلب عادي ، ولو كان ذلك ، لما اقتضى الحرب والتضحية بالنفس ، ولكان التوسل إلى ذلك سهلاً بغير الموت.

حتى حين كان يمدح ، كان يبدأ أحياناً قصائده ، بعرض تلك الأفكار ، وخاصة ، إذا كان الممدوح ممن يتوسم فيهم خيراً ، أو يطمع في مساندته. يقول في مطلع قصيدة مدح بها علي بن ابراهيم التنوخي — والتنوخيون ممن عطفوا على حركة أبي الطيب ، وأيّدوها :

أفـكّــر في مـعـاقـرة المنـايـا
وقـود الخيـل مشرفـة الهوادي[1]
زعيم لـلـقـنـا الخطيّ عـزمي
بسفك دم الحواضر والبوادي[2]

---

(١) همي تحدي الموت على خيل طويلة الأعناق (كناية عن سرعتها).

(٢) إرادتي الصادقة ، كفيلة للرماح بأن أسفك على أسنتها دم البدو والحضر. إذا اعترضوا طريقي إلى ما أريد. (من الواضح أنه يشدد على معنى الثورة الدموية).

إلى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التمادي في التمادي؟[١]
وشغل النفس عن طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد![٢]

ألا يكشف المتنبي هنا عما يسعى إليه؟ ثم ألا تشعر أن جولته الشعرية على الأمراء، يمدحهم، لم تكن مقصودة لذاتها، بل كان القصد التبشير بما رخص نفسه له؟ ألا يبوح للتنوخي بحقيقة مطلبه؟ ثم أَلَمْ يدرك التنوخي حقيقة ما يدعو إليه أبو الطيب؟

لا بدّ في نهاية هذا العرض، من التنبيه إلى القصيدة المشهورة، التي مطلعها: «كم قتيل كما قتلت شهيد». وأشير إلى القسم الذي يلي المقدمة الغزلية، منذ قوله: «ما مقامي بأرض نخلة...» وأورده هنا لما له من دلالات، سأشير إليها بعد إثبات الأبيات:

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ
كمقام المسيح بين اليهود
مفرشي صهوة الحصان ولكنْ
نَ قميصي مسرودة من حديد[٣]

---

(١) التواني: التقصير. — معنى البيت: ما معنى تقصيري وتمادي في التقصير عن القيام بتلك الثورة.

(٢) (هذا البيت يكمل معنى البيت السابق). لِمَ أشغل نفسي عن الثورة في سبيل المجد الذي أطلب، بشعر لا يبلغني ما أريد. (ليس المقصود المديح والكسب به فحسب... وإنما القصد أن الشعر لا يفي بما أريد من مطلب).

(٣) فصلت النون المشددة للوزن.

لأمـــة فـــاضـــة أضـــاة دلاص

أحكمت نســجـهــا يــدا داود

أين فضلي إذا قنعت من الدهـ

ـر بـعـيش مـعـجل التنكيد

ضاق صدري وطال في طلب الرز

قِ قيامي وقلّ عنه قعودي

أبــداً أقــطــع الــبلادْ ونجمي

في نحوس وهمتي في سعود

ولـعـلّي مؤمّـل بعض ما أبـ

ـلغ باللطف من عزيز حميد

لسريّ لـبــاسه خشن الـقـطـ

ـن ومرويّ مَرْوَ لبس القرود

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

فـرؤوس الـرمـاح أذهب للغيـ

ـظ وأشفى لغلّ صدر الحقود

لا كما قد حييت غير حميد

فـإذا مت مت غير فـقـيـد

فاطلب العزّ في لظى ودع الذلْـ

ـلَ ولو كان في جنان الخلود[1]

(٢) فصلت اللام المشددة للوزن.

يقتل العاجز الجبان وقد يعـ
ـجز عن قطع بخنق المولود
ويوقى الفتى المخشّن وقد خوْ
وض في ماء لبة الصنديد[1]
لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعوذ الجاني وغوث الطريد
إن أكن معجباً فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي
وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها اللـ
ـه غريب كصالح في ثمود

* * *

هذه القصيدة ، من أوائل ما نظم المتنبي . بل يؤكد شراح الديوان أنه نظمها في صباه . ولعلها نظمت قبل بدء الدعوة ، أو مع بداياتها . على أن قوله :

---

(١) فصلت الواو المشددة للوزن.

ما مـقـامي بـأرض نخلة إلا

كـمـقـام المسيح بين اليهود[1]

يحملني على الاعتقاد أنه كان في مرحلة التبشير، وأن أهل نخلة استصغروا قدره، ونبذوه، فإذا مقامه مقام المسيح بين اليهود. وتلك إشارة واضحة إلى ما كان يلاقي من عنت القوم، وحاله في ذلك حال كل داعية إلى ثورة، لا بد أن يتنكّر له القوم، فهم بين آبٍ، وساخر، وحيادي، وعدائي، ومؤذ. وقلما يقبل على الدعوة إلا القلة النادرة.

في القصيدة دلالات كثيرة، أذكر أبرزها في اختصار:

١ ــ أن إحساس المتنبي بمأساة مجتمعه، متداخل بإحساسه بمشكلته كفرد، يعاني من بؤس العيش، و«سوء الحظ»، بينما «قرود» المجتمع تنعم بالرفاه. يشير إلى ذلك بقوله: «ومرويّ مرو لبس القرود».

على أن الاحساس المبكر بالمأساة الفردية، إما أن ينتهي إلى مطامع فردية، وطموحات «بورجوازية» ــ حسب النعت الحديث ــ تتمثل في الرغبة بأن يملك الفرد ما يملك المترفون، ويحيا حياتهم، أو ما يشبهها. وتلك ظاهرة مشهودة في مجتمعاتنا.

وإما أن يبلورها الوعي، والحس القومي، فتغدو مشكلة المجتمع، مدار الفكر، وهدف العمل، وغاية كل نشاط. وهذا ما كان من أمر المتنبي، منذ اتضحت فكرة الثورة لديه.

٢ ــ ثم إن القصيدة تنطوي على الحس الاجتماعي الثوري. يتضح

---

(١) نخلة: وردت نخلة في بعض النسخ.

ذلك من النموذج الثوري، البيّن في الأبيات. فالثوري في صدام مع مجتمعه، خاصة إذا كان مثل مجتمع المتنبي، متخثراً، هامداً، جامداً، لطول ما عدت عليه العوادي، وتراكمت عليه المآسي، فبلّدت حسه، وفرضت عليه حيادية قاتلة تجاه الأحداث رغم بشاعتها، فإذا المؤمنون بالخلاص، والنضال في سبيله، قلة نادرة. وهذا ما أشار اليه المتنبي في أكثر من مكان، نذكر من ذلك الأبيات التي يصف فيها رفاقه من الثوار، بينما يندد بالأكثرية الغافلة المتغافلة: «أذم إلى هذا الزمان أهيله». — أوردتها من قبل —

بيد أن الصدام بين الثائر والمجتمع، لا بد منه، لتولد الحركة الثورية فمن هذا الصراع تتفجر القوى المتألمة، فتتحول إلى قوى ثورية.

٣ — ولعل هذا ما حمل المتنبي على التركيز على صفات الثوري منذ البداية، فعل الحركات والأحزاب التي تشدد على صفات المتنسبين وشروط انتسابهم. ولا عجب أن تتركز الصفات في شخص أبي الطيب نفسه، لأسباب، منها أنه يعرضها في قالب شعري، وأن الفخر كان مسألة طبيعية، وأن المجتمع كان يفرض أن يتحلى القائد بالصفات التي يتوخى أن يحذو الشعب حذوها.

٤ — من تلك الصفات كذلك أن الثوري محارب، جاد، لا يهدأ، هذا هو ما رمى إليه من البيتين «الثاني والثالث». فكون «مفرشه صهوة الحصان» كناية عن السعي الدائب في سبيل ما يطمح إليه، وكون «قميصه من حديد...» توكيد على النزوع إلى الكفاح المستمر.

٥ — ومما يلاحظ العقبات التي تعترض طريقه: «أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس» ولكن الثوري يتفوق على العقبات، وعلى عوامل اليأس التي تراوده «وهمتي في سعود».

٦ـ تكثر صفات المؤمن بالموت في سبيل الحياة الحرة الكريمة: «عش عزيزاً أو مت وأنت كريم». فهو يأبى أن يحيا لمجرد البقاء، ويتطلع إلى مستوى لائق بالوجود الانساني:

لا كما قد حييت غير حميد

وإذا متّ متّ غير فقيد

والحق أن الموت واحد، يأتي الجبان والشجاع، فلا يخشاه الثائر، بل يقبل عليه، لأنه طريق العزة والجدارة بالوجود.

٧ـ واعتزاز الثائر بذاته وصفاته، لا بما ورثه عن آبائه، على أن المتنبي استدرك، خوف أن يظنّ به احتقار قومه. فأكّد على أنهم «فخر كل من نطق الضاد». ولعلّ لفظ «كلّ» يشير إلى كل من كانوا يتكلمون اللسان العربي، من عرب وعجم. وإلاّ لم تكن من حاجة إلى لفظ «كل». والمعروف أن الناطقين بالعربية في مجتمع المتنبي، عرب وعجم[1].

٨ـ الاعجاب بالنفس ـ وقد أشرت إلى اسبابه ـ ليس إعجاباً أجوف. وإنما هو متصل بصفات، منها: الكرم ـ والمقصود الكرم إطلاقاً ـ وسيادة القوافي ـ والمقصود الشعر والثقافة عامة ـ وسمام العدى ـ وما أكثر أعداء العرب يومذاك ـ. وأبرز من كل ذلك: أنه يمثل القيم المثلى «صالح في ثمود» في أمة انهارت أو أوشكت على الانهيار.

---

(١) الأعجمي: كل من لم تكن لغته الأصلية العربية.

— ٢ —

كانت حمص، إبان دعوة المتنبي الى الثورة، خاضعة لحكم الأخشيد، وكان واليها لؤلؤ، الذي اعتقل المتنبي.

ولكن كيف اعتقله؟ ولماذا قصد المتنبي حمص، أو ما حولها، بعد أن كان أعلن الثورة في قصيدته — البيان السياسي؟

لقد استُدرِج المتنبي إلى كوتكين، القرية القريبة من حمص، استدرجه إليها إبن علي الهاشمي، بحجة الاتصال ببعض قادة القبائل، ممن يعتزمون تأييده في ثورته. فجاءها متخفياً مع قلة من رجاله، طمعاً في ذلك التأييد، وفي توسيع رقعة الثورة وقاعدتها. فإذا هو يواجه كميناً، أعده له إبن علي الهاشمي.

يروى للمتنبي البيتان التاليان في الهاشمي، لا نجدهما في كل النسخ:

زعـم المقيم بـكـوتـكين بـأنـه
من آل هاشِمٍ بن عبد منافِ
فأجبته مذْ صرتَ من أبنائهم
صارت قيودُهُمُ من الصفصافِ[1]

(١) حين اعتقل المتنبي، جُعِلَتْ في رجليه وعنقه خشبتان من صفصاف، شدتا بالحبال. وإلى هذا يشير البيت الثاني: — قيودهم من الصفصاف —.

هل كان بين المتنبي وسلالة علي بن أبي طالب خلاف سابق؟ ليس في شعره وحياته ما يدل على ذلك. بل إن من أوائل من مدحهم، محمد بن عبيد الله العلوي بقصيدة مطلعها :

أهلاً بـدار سبـاك أَغْـيَـدُهَـا
أبـعـدُ مـا بـان عنك خُرَّدُهَا

أعتقد أن الخلاف نجم منذ حادثة كوتكين. يغدر به من ينتسب إلى البيت العلوي. ولم يكن الانتساب ليشكل، في نظر المتنبي، أي أساس لقيمة الأشخاص. ولكن الفعل السيء حين يصدر عمّن يتباهى بانتسابه، يدعو الى الانتقاص من المنتسب، بل من النسب.

ثم إن ابن علي الهاشمي موظف تابع لمن انتهكوا حرمة العرب، وأسهموا في تمزيق حكمهم ودولتهم. ولا يأنف من الغدر، ولو كان الغدر شخصياً لهان الأمر، ولكنه في قضية كبرى هي الثورة.

لقد قضى غدر ابن علي الهاشمي على أشرف حركة، كان من شأنها، لو انتصرت، أن تغير وجه التاريخ. أو هذا على الأقل، ما كان يؤمن به المتنبي.

ليس من عجب إذن، أن ينجم الخلاف بين أبي الطيب والعلويين، لأن العلويين، انتصروا لنسيبهم الغادر، على المتنبي المغدور، وما تلك من شيم الكرام، وعلي وبعض سلالته من هؤلاء الكرام. ولم يكتف العلويون بذلك، بل حاولوا اغتيال المتنبي أكثر من مرة. مما سيمر ذكره.

انطوت بتلك الحادثة، أكثر صفحات المتنبي الثورية إشراقاً. كان ثائراً، يعرف ما يريد، أهدافه محددة، ووسائل ثورته معروفة : مقاتلون مناضلون من طراز فريد، وإن كانوا قلة بالقياس إلى مجموع الشعب.

وقاعدة جماهيرية ناقمة ، تمتد ما بين الكوفة والسلمية ، إلى مشارف حمص والمعرة .

قضى المتنبي في السجن سنتين ، وقيل أكثر. فما كانت حاله فيه؟ كان مقيداً بالحديد طوال وقته ، يقول في القصيدة التي وجهها الى لؤلؤ ليعفو عنه :

دعوتك لما براني البلى
وأوهن رجليّ ثقل الحديد

وكان يعاني من الارهاق ، والنحول ، وسوء الصحة ، والجوع . هذا أبو دلف يبعث إليه بطعام ، فيأكل منه رغم كرهه أبا دلف بن كنداج — وهو أعجمي وكان يسخر من أبي الطيب في محبسه ، ويعذبه نفسياً ، ويشي به — يقول من أبيات :

غير اختيار قبلت برّك بي
والجوع يرضي الأسود بالجيف

وكان يعاني من العيش بين سجناء من المجرمين وقطاع الطرق :

وكنت من الناس في محفلٍ
فها أنا في محفل من قرود

لا ريب أن أبا الطيب ، ظل زمناً طويلاً يرفض التراجع ، أو الاقرار بالخطأ — إذا جازت التسمية — . ولا ريب أنه صبر على الاذلال ، والتجاهل ، وألوان العذاب ، خاصة النفسي ، فقد وطّن نفسه على احتمال كل أذى ، ولو كان الموت :

كن أيها السجن كيف شئت فقد
وطنت للموت نفس معترف

لو كان سكناي فيك منقصة .

لم يكن الدر ساكن الصدف.

لعل المتنبي كان يتوقع انتصار ثورته ولو طال الأمد!

ولعله خيل إليه أن رفاقه سينفذون ما جاء في قصيدته ــ البيان السياسي. غير أن اليأس دب إليه آخر الأمر ، بعد أن ظل منسياً ، منقطعاً عن العالم ، جائعاً معذباً مقيداً . ولعله اعتقد أن خروجه من السجن ، بأي ثمن ، وسيلة للعودة إلى نشاطه السابق ! ذاك كان من أخطائه الكبيرة ، مع يقيني أنه لو لم يعتذر إلى لؤلؤ ، لما خرج من السجن حياً ! خطؤه في أنه برر لنفسه الاعتذار في سبيل غايته ، وما كان المتنبي الثائر ليرضى عن ذلك ، وهو الذي بشر بالنموذج الثوري.

في قصيدة الاعتذار ، بيت تجدر الاشارة إليه :

وكن فارقاً بين دعوى اردت

ودعوى فعلت بشأو بعيد

لا يقول المتنبي إنه لم يرد الثورة ، وإنما يقول إنه لم يفعلها. وكأني به شاء ألا يتراجع عما كان يفكر به ، فزعم أن الأمر مجرد إرادة ، لم تجاوز نفسها إلى الفعل. أو لعله شاء تمويه ما يريد ، باللعب على معاني الألفاظ ، واخراج المسألة من اتهامه مباشرة ، إلى اتهام الوشاة ، ومحاكمتهم على ما ورد في وشاياتهم.

خرج المتنبي من السجن ، محطم النفس ، أسير إحساس بالإثم لأنه اعتذر ، وصراع حاد داخلي ، بين شعوره بأنه لم تكن ثمة وسيلة للخروج من السجن بغير الاعتذار ، بعد عذاب دام أكثر من سنتين ، وبين شعوره بأنه انحرف عن مثله في سبيل الحياة. ولعل الصراع ازداد حدة ، حين منع

العودة الى الكوفة ، من جهة ، وحين وجد أن الناس نسوه ، بعد العزلة الطويلة ، وأن رفاق النضال ، غرقوا في مجاهل لا يعلم عنها شيئاً ، وأن عليه أن يبدأ من الصفر ، إن شاء أن يفعل ، ولكن الظروف تبدلت ، والناس تغيروا ، وهو وحيد وحدة قاتلة .

أين يتجه ؟ ما يفعل ؟ طريق الكوفة مقفلة بوجهه ، وهي منبته ومنطلق ثورته ! يجوب البلاد وحيداً إلا من زاد الشعر ؟ يتحول إلى شاعر ، مجرد شاعر ؟

وشغل النفس عن طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد

هل تساوت الأيام ، وتساوى الناس في نظر أبي الطيب تلك الفترة ، بعد أن أعتوره اليأس ، وهدّه الفشل ، وواجه حقيقة انتهاء ما انتدب له نفسه ، حين خرج من السجن ، وحركته قد تلاشت ، وتشتت صحبه ، بعد أن آمن بهم كما آمنوا به ، فوصفهم ذلك الوصف ، الذي يشدد على أنهم من النادرين بين المناضلين والثوار :

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم.

يخيل إليّ أن الشاعر ، شعر بالضياع والتمزق إلى أقصى الحدود ، وأنه كان يواجه مأساة أن يكون موظفاً ، وظيفته المديح ، لا أكثر ولا أقل. والمديح تلك الأيام ، وظيفة كل شاعر ، ولعلها تشبه إلى حد كبير اليوم ، تفرغ الكتاب والشعراء والفنانين. مع فارق أساسي ، وهو أن التفرغ ، قد

لا يفرض على المتفرغ ، أن ينطق بما يريد صاحب الحكم ، أو أن يتقيد بظروف السياسة .

كان عليه ، في مقابل ذلك ، أن يحاول إثبات وجوده ، بطريقة ما ، وإن كانت المحاولة في مثل هذه الحال أشبه بالكذب على النفس . قد تكون صادقة ، وعفوية ، تصدر عن رغبة خفية في الذات ، غير أنها لا يمكن أن تملأ الفراغ ، الذي خلقه الفصام بين المرء وحركته ، وقاعدته الشعبية ، وما رخص له نفسه ، والأحلام العريضة الواثقة ، التي حلم بها ، بل كانت كل وجوده .

لعل توكيد الذات ، لدى المتنبي ، مختلف عنه لدى غيره من الشعراء . فهو منصب على تفجير القيم ، في من يمدح ، من جهة ، وعلى الفخر بفضائله الذاتية ، عبر قصائد المديح أغلب الأحيان ، من جهة ثانية .

مما يلاحظ في مدائحه ، هذه الفترة ، أنه يحاول رسم صورة بطل نموذجي ، قد لا يطابق الممدوح في واقعه ، ولكنه الصورة المثلى الكامنة في ذات المتنبي . فكأنه كان يبحث عن الثائر الذي كانه من قبل ، أو يريد خلق هذا الثائر ، أو إيقاظ روح الثورة ، في أمير من الأمراء ، عله يحقق ما كان الشاعر ، يسعى إليه ، ويطمح إلى فعله .

صورة البطل هذه ، لن تتضح نهائياً ، إلا عبر صورة سيف الدولة ، كما سنرى . ولكنّ ملامحها كانت شائعة هنا وهناك في مدائحه . ولعل ثمة سببين : الأول صعوبة تحويل الملامح الحقيقية من ذاته ، إلى الآخرين ، يخلعها عليهم ، في تجربة خلق شخصية فذة ، ثائرة . والثاني ندرة الرجال الذين يجسدون فضائل حقيقية ، وروحاً ثورية نضالية .

قد يقول قائل ، إن المادح ، أيّاً كان ، يفترض فيه أن يسبغ على

الممدوح صفات معينة ، منها الكرم ، والخلق القويم ، والشجاعة ، وما إلى ذلك. ولم يخرج المتنبي على هذا الإطار.

لئن لم يكن الفرق كبيراً ، هذه المرحلة ، بين ما يسبغه المتنبي على ممدوحيه ، وما أسبغه أو يسبغه غيره ، فإن الفرق سيتضح كثيراً مع سيف الدولة ، لأن سيف الدولة ، كان مختلفاً عمن عرفهم الشاعر ، ولأنه كان طموحاً ، إلى ما طمح إليه أبو الطيب ، يعدّ العدة لذلك ، ويتحين الفرص ، التي لم تلائمه يوماً ، لأسباب سأذكرها في ما بعد.

مع ذلك ، يستطيع متتبع شعر المتنبي ، بعد خروجه من السجن ، أن يلحظ سمات تميزه من غيره من المادحين. فثمة «شخصية» غائمة بعض الشيء ، ولكنها متواصلة الملامح ، مترابطة الفضائل ، يمكن استخلاصها ، من المدائح.

يقول في عبيد الله بن يحيى البحتري :

ولو تنزل الدنيا على حكم كفّه
لأصبحت الدنيا وأكثرها نزر[١]

أراه صغيراً قدرَها قدرُ نفسه
فما لعظيم قدره عنده قدر[٢]

في البيت الثاني ، صفة من صفات تلك الشخصية ، يعود إليها المتنبي ، دائماً ، في صور مختلفة ، قد تتباين قوة وجمالاً ، شعرياً ، ولكنها أساسية دائماً. ويمكن تلخيصها بما يلي : النفس العظيمة ، هي التي تملك

(١) لو امتلك الدنيا لبذلها فلم يبق منها بقية.

(٢) فهي صغيرة في مقياس ذاته العظيمة. وكل عظيم صغير بالقياس إلى سمو قدره.

قدرها ، لذلك تستهين بالدنيا (أي الأحداث والنوائب) وتستصغر كل عظيم ، إذ لا حدود لعظمتها وقدراتها .

ولا بد أن أشير هنا إلى الصلة ، في مقاييس أبي الطيب ، بين العطاء بمعناه العام ، وبين عظمة الذات ، لذلك لم يقل إن الممدوح سخي وحسب ، بل أكد أن ذلك السخاء طبيعي من ذات تستصغر كل عظيم ، لأنها مثالية متفوقة . والمثالي من اكتملت فيه كل الصفات .

مما يلاحظ أن عظمة النفس ، بهذا المعنى ، ذاتية ، غير مكتسبة ، فطرية ، تولد مع المرء ، فلا سبيل إلى جعل الحقير عظيماً . قد يسأل سائل : هل يتمايز الناس منذ الولادة ، بالطبائع ؟ .. لا أحسب المتنبي عني بالتفصيل على تلك الأمور ، ولكنه شدد على الفضائل ، والفضائل . إن كانت مكتسبة ، وراثة ، أو تربية ، أو تعلماً ، فإنها إن لم تغذ عين الذات ، أي إن لم تتساوَ والفطرة ، لم تكن أكثر من مظهر . ثم إن النفس ، كلٌّ لا يتجزأ ، فإما أن تكون مكتملة الفضائل ، أو لا تكون فاضلة على الاطلاق . فلا يكون المرء ، في نظر المتنبي ، كريم النفس عظيمها ، ويكون ، في الوقت ذاته ، جباناً ، أو متنكراً لحاجات شعبه ، وقضايا وطنه . وهذا الموقف هو موقف العرب منذ نشأتهم ، فلا تجتمع عظمة النفس والبخل ، ولا يكون المرء كريماً — مهما بذل من مال — إن كان جباناً .

وهذه صفة ثانية ، في القصيدة ذاتها :

كثير سهاد العين من غير علة
يؤرقه في ما يشرفه ، الفكر[1]

---

(١) التفكير في ما يشرف هو الذي يؤرق العظيم ويقلقه . والقلق هنا وجودي .

عظمة النفس، تدعو العظيم إلى سلوك سبيل المجد والشرف، والشرف في منظور الشاعر، هو الكرامة، والوطنية، والذود عن الحياض، و... الخ... مما سنراه تفصيلاً في ما بعد.

والشرف شغل العظيم الشاغل، يفكر فيه، ويأرق له، ويسعى إليه، فهو بالتالي من صنعه، لم تَسُقه الوراثة أو الصدف، — وهما لا يورثان شرفاً، في نظر الشاعر، ولو كان الأهل شرفاء — وهو عِدْل قدر المرء، ومُواكبه، فلا قَدَرَ له إن لم يكن شريفاً، ولا شرف له إن لم يكن يملك قدره، ويصنع به أمجاده.

هذه النظرة تميز الشاعر من غيره، لأن الآخرين، يتناولونها صفة جاهزة، متداولة، يذكرونها في شعرهم، ذكر الناس لها، وضمن الدلالات اليومية، أما أبو الطيب، فترتبط لديه بسلسلة قيم، تكوّن في مجموعها النموذج.

والعقل، والادراك، والتعقل، صفات تصاحب مدائح المتنبي، فمن يطلب المجد، ويطمح إلى تحقيق الأمور العظام، لا بد أن يكون راجح العقل، عميق البصيرة.

وقائلةٍ، والأَرضَ أعني، تعجباً
علىّ أمرؤ يمشي بوقري من الحِلم[1]

والحرب، وسيلة العظيم الى ردع الظلم، ودحض الأذى عن الوطن، وانتصار الكرامة، وتحقيق العزة. وذلك أشبه بقولنا هذه الايام: لا تكون الثورة إلا بالدم والتضحيات:

---

(١) جعل الأرض تعجب من رجل حلمه ثقل الأرض.

وقد صغت الأسنة من هموم
فما يخطرن إلاّ في فؤادِ[1]

لا بد هنا من ملاحظة العنف في الصورة ، حين جعل الشاعر الأسنة هموماً لا تخطر إلا في الأفئدة. قد يوصف السنان بصفات بديعة ، ومرعبة أحياناً ، أما أن تكون هماً في الفؤاد ، فتشديد على معنى القوة والعنف في القتل ، ولكن ، دائماً ، في سبيل قضية كبرى.

والثقافة صنو القوة والعلم والشجاعة ، فما قيمة امرىء غير مثقف ، ولو كان أشجع أهل الأرض. ذلك أن الثقافة تضيء الآمال العظام ، وتوطّد المثل والمبادىء :

أديب رست للعلم في أرض صدره
جبال .جبال الأرض في جنبها قُفّ ![2]

إليك البيت التالي ، يقرن فيه الشاعر ، بين العقل والتدبير ، وبين الشجاعة ، إذ هما صنوان لا ينفصلان :

تدبيرَ ذي حُنكٍ يفكر في غد
وهجوم غِرّ لا يخاف عواقبا

والربط بين الشجاعة والقضايا المصيرية ، كثير كثير في مديح أبي الطيب. فقد كان الصراع بين العرب والروم ، وبين العرب والفرس ،

---

(١) لكأنما صنعت الأسنة من الهموم بدل الفولاذ. والهم لا يخطر إلا في القلب. والمعنى : خلقت أسنتك لتخترق قلوب الأعداء.

(٢) القف : الغليظ من الأرض.ــ تبدو جبال الأرض بالقياس إلى جبال علمه كالقف.

يومياً ، فلا راحة فيه لمحارب حقيقي ، أضف إلى ذلك أن الثائر الحق من كانت الحرب شغله الشاغل ، ومصيره المقيم ، وقدره الثابت :

إلى اليوم ما حطّ الفداء سروجه
مذ الغزو سار ، مسرج الخيل ملجم

والقول عمل ، لأن الارادة صنو الكلمة ، والرجل من إذا قال فعل ، بل هي القدر المتحقق ، القابض على مقاليد الأحداث والزمان :

نفذ القضاء بما أردت كأنه
لك كلما أزمعت شيئاً أزمعا

ولا أكره على المتنبي من دعوى الحِلم والتقية ، وتجنب الأحداث ، بحجة المسالمة ، والنفور من المشاكل ، وادعاء الطيبة والروية . فتلك دعوى الجبناء غير القادرين ، لأن القادر ، يخوّض في صميم الأحداث ، ويجابه أعتى الأمور ، ويتحدى العقبات ، ويهوى الصعاب ، في سبيل تحقيق الغاية من وجود الانسان ، وهي الكرامة والعزة ، وكل دعوى غير ذلك ، تعبير عن لؤم في الطبع ، يخفيه الجبان بالتواضع المزيف :

كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجىء إليها اللئام

هذا قليل من كثير . ولو التفتنا إلى فخره ، ومعظمه في قصائد المديح ذاتها ، لوقعنا على صور أمثل ، وأصدق ، فأبو الطيب ، حين يواجه ذاته ، وهي النموذج الأصيل ، تفجرت القيم جميعاً .

هذا أبو الطيب يقول في قصيدة مدح بها الحسين بن اسحق التنوخي :

جـفـتني كأني لستُ أنطقَ قومِهَا
وأطعنهم والشُهْبُ في صورة الدُّهْمِ (١)

يحاذرني حـتفي كـأنيَ حـتـفُـه
وتـنـكزُني الأفعى فيقتُلُهَا سُمّي (٢)

طـوال الرُّدَيْـنـيّاتِ يقصِفُهَا دمي
وبِيضُ السُّرَيْجيّاتِ يقطعُهَا لحمي (٣)

بَرَتْني السُّرى بَرْيَ المُدَى فَرَدَدْنَني
أَخَفُّ على المركوبِ من نَفَسي جِرْمي (٤)

وأَبْصَـرَ مـن زرقـاءِ جَـوٍّ لأنّني
متى نظرتْ عينايَ شاءاهما علمي (٥)

---

(١) أنطق : أفصح . أبين . — الشهب : صفة للخيل إذا خالط لونها بياض . — الدهم : السوداء . — يتحدث عن الحبيبة التي اعتزمت النأي رغم أنه أفصح قومها . وأكثرهم إقداماً في المعارك التي يصبح فيها لون الخيل الشهب أسود لاصطباغها بالدماء والغبار .

(٢) يحاذر : يخشى . — الحتف : الموت . — تنكز : تلسع . — يخشاني الموت كأني موته . وتلسعني الأفعى فيقتلها سمي . وذلك تعبير عن شدة الحقد والعنف .

(٣) الردينيات : الرماح المنسوبة إلى امرأة اسمها ردينة (ويقال هو اسم رجل مثل أمية) . — السريجيات : السيوف المنسوبة إلى سريج وكان صانع سيوف . — يقصف لحمي الرماح لقسوته . ويقطع دمي السيوف لعنفه . — كناية عن الحقد والعنف .

(٤) السرى : المسير في الليل . — برى : أهزل . — المدى : السكاكين . — الجرم : الجسم . — أنحلني سير الليل فغدا جسمي أخفّ من النفَس .

(٥) أبصر : (نصبها على أنها معطوفة على الحال المكونة من جملة : جرمي أخف) . زرقاء : هي زرقاء اليمامة . — جوّ : اسم أرض في اليمامة . — (قيل كذلك : زرقاء الجو : أنثى النسر وهي حادة البصر) . شاءى : سابق . وهي من الشأو : الغاية . أنا أبصر من زرقاء اليمامة . وعلمي أسبق من عيني إلى معرفة المنظور . كناية عن عمق البصيرة .

كأني دَحَوْتُ الأرضَ من خبرتي بها
كأني بنى الاسكندرُ السدَّ من عَزمي [(١)]

يلفت النظر في هذه الأبيات عدد من الصفات النموذجية : الفصاحة ، الشجاعة ، تحدي الموت ، الحقد البالغ حتى لهو السم ، القوة والعنف ، النضال الدؤوب ، البصيرة المدركة ، والخبرة والعزيمة . ولكن المتنبي جعل هذه الصفات في أعنف الصور ، دلالة على تشبثه بالعنف الثوري طريقاً إلى تحقيق الغايات .

الصورة الأولى : معركة طاحنة تحولت فيها ألوان الخيل الشهب إلى لون واحد أسود لكثرة الدماء التي غطت الخيل .

الصورة الثانية : أنه حتف موته ، لشدة إقدامه ، وعظم تحديه المخاطر لذلك يخشاه موته ، بدل أن يخشى هو الموت . فإذا أضفنا إلى هذا قوله في قصيدة أخرى :

وأَقْدَمْتُ إقدامَ الأتيِّ كأنَّ لي
سوى مهجتي أو كان لي عندها وِترُ [(٢)]

أدركنا مدى إلحاح المتنبي على هذه الصفة الثورية وهي الإغراق في تحدي الخطر والموت إلى حد يبدو معه الاستشهاد غاية الغايات .

---

(١) دحا : بسط . — يفخر بأسفاره في سبيل غاياته لذلك يعرف الأرض كأنه الذي بسطها . ويفخر بإرادته فكأن سد الاسكندر المشهور مبني من عزيمته .

(٢) الأتي : السيل . — الوتر : الثأر . — أقدمت كالسيل كأن لي روحاً ثانية إذا قتلت واحدة عشت بالثانية . أو كأن لي ثأراً عند روحي .

الصورة الثالثة، وهي أعنف الصور جميعاً: وتنكزني الأفعى فيقتلها سمي. ليست هذه الصورة مجرد مبالغة لفظية، وليست لهواً لفظياً. المتنبي جاد دائماً، خاصة حين يعبر عن صفاته. لذلك أقول إنه يشدد على ميزة فلما تنبه إليها دارسوه في هذا البيت، وهي صفة الحقد الثوري. فهو يؤمن أن الثائر يجب أن تمتلىء نفسه بالحقد على كل ما يعوق ثورته. ولا يكون ثائراً إذا خالطت نفسه رحمة أو ضعف.

الصورة الرابعة توكيد للثالثة، وتشديد على القسوة والعنف، فلا يجعل الحقد مجدياً إلا عنف يرفده وقسوة بالغة تعضده.

الصورة الخامسة: تركيزه على صفة الوعي والادراك لدى الثوري فهو قادر على اكتناه الأحداث، قبل حدوثها، ليتأتى له رسم خططه إلى أهدافه. هو بصير لا مبصر فحسب. وهذا شبيه بقوله في سيف الدولة: «يرى قلبه في يومه ما ترى غدا».

الصورة السادسة: تبرز صفتي الخبرة والعزم في الثائر. إذ الخبرة وحدها غير كافية. فلا بد أن يستخدم الخبرة في سبيل أهدافه، مما يتطلب إرادة صادقة وعزيمة لا تفل.

وفي قصيدة يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي:

أفكّرُ في معاقرة المنايا
وقَوْدِ الخيل مشرفةَ الهوادي[1]

---

(١) المعاقرة: الملازمة.ـ المنايا: ج منية الموت.ـ مشرفة الهوادي: طويلة الأعناق (كناية عن السرعة) همي أن أظل في حرب لا تهدأ.

زعيم للقنا الخطيّ عزمي
بسفك دم الحواضر والبوادي[1]

في البيتين فكرتان رئيسيتان : الحرب الدائمة (وهي فكرة الثوار نفسها في عصرنا : الثورة الدائمة) والعنف في سبيل الغاية.

وفي قصيدة أخرى في علي بن ابراهيم التنوخي :

إني وإن لمت حاسديّ فما
أنكر أني عقوبة لهمُ
وكيف لا يُحْسَدُ امرُؤٌ عَلَمٌ
له على كل هامة قَدَمُ
يهابه ابْسَأُ الرجال به
وتتَّقي حد سيفه البُهَمُ
كفانيَ الذَّمُّ أنني رجل
أكرم مالٍ ملكته الكرمُ

يعنيني من هذه الأبيات صفات النموذج الثوري التالية : الفرادة ، واحتقار من لم يكن على صفاته. والمهابة ، (يهابة أبسأ الرجال به : أي آنسهم) والحرب ، وكرم النفس ، وخلوصها من كل عيب.

زفي قصيدة يمدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي :

(١) زعيم : كفيل.— تكفل إرادتي للرماح أن أسفك الدم دون هوادة.

ودهـــري نـــاسه نـــاس صـــغـــار
وإن كـانت لهم جثث ضـخامُ
ومـــا أنـا منهـــم بـالـعيش فيهـم
ولـكـنْ معدن الـذهب الـرغامُ

في البيت الثاني تشديد على الفرادة بين ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام، فهو الذهب وهم التراب.

وفي قصيدة مدح بها عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي:

مـا تـريد النوى من الحية الذوّ
اق حـــر الـفلا وبـــرد الـظلالِ[1]
فهو أمضى في الروع من ملك المو
ت وأسرى في ظلمة من خيالِ
ولحتـف في الـعـز يـدنـو محب
ولـعـمـر يـطول في الـذل قـالِ[2]

هنا صفات نموذجية كذلك: احتمال الظروف والمصاعب مهما كانت (كنى عن ذلك بتشبيه نفسه بالحية الذواق حر الفلا... الخ...) والمضاء في الحروب، والاستشهاد في سبيل مجد الهدف، ورفض الذل.

هذا قليل من كثير، أردت منه تقديم صور عن تلك الصفات النموذجية المتشابهة التي نجدها في المديح والفخر.

---

(١) الحية: تقال للذكر والأنثى.

(٢) القالي: الكاره.

يسترعينا كذلك ، هذه الفترة ، أن المتنبي ، كان يفكر في الثورة ، ويعود إلى منطلقاتها ، حيناً بعد حين ، وكأنه كان يخفي ما يرسم للمستقبل ، ثم لا يطيق إلا أن ينفث ما في الصدر من خبيء.

وينبهنا أكثر من مرة إلى عداة يكيدون له ، ويريدون به شراً. وليس الدافع الى ذلك ، شعوراً خفياً بأنه مظلوم ، أو أن الناس يتعمدون ظلمه.

يسمع ، وهو يجتاز مكانا اسمه الفراديس ، أسداً يزأر ، فيقول :

أجارُكَ يا أُسْدَ الفراديس مُكْرَمٌ
فتسكنَ نفسي أم مهان فمسلم؟
ورائي وقدامي عداة كثيرة
أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفي على ما أريده
فإني بأسباب المعيشة أعلم
إذاً لأتاك الرزق من كل وجهة
وأثريت مما تغنمين وأغنم

ويخاطب الدهر ، ويقصد عصره وأحداثه ، ومن فيه ، وما فيه :

عدوي كل شيء فيك حتى
لخلتُ الأكْمَ موغرة الصدور
فلو أني حسدت على نفيس
لجدت به لذي الجد العثور
ولكني حسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور

ويقول في قصيدة أخرى :

لا أقتري بلداً إلا على غَرَر
ولا أمر بخلق غير مضطغن

هل كان سبب هذا العداء تعالي أبي الطيب ، كما يحلو لبعضهم أن يظن؟ أم كان سببه حسداً على حظوة ، كما خيل لآخرين ، وهو القائل هذه الفترة :

فقل في حاجة لم أقض منها
على شغفي بها شروى نقير.

قد يكون للأمرين أثر في تأليب العداة ، ولكني لا أعتقد أن الأمر يبلغ حد القتل ، والرغبة في استئصاله من الوجود. بل أرى أن أفكاره كانت تثير عليه الآخرين ، وتحقد عليه حتى الأمراء ممن مدحهم. كانت شوكة في حلوقهم ، ينبههم إلى قصورهم ، وتقصيرهم. ملكوا المال ، وأنشؤوا الجيوش ، ولكنهم كانوا دون طموح ، لا يشغلهم مجد ، والمجد في وعي أبي الطيب ، أن تحرر بلادك ، وأن تعيد بناءها ، أو أن تقضي دون ذلك. لقد واجه المتنبي ملوكاً وأناساً لا يختلفون عمن خبرهم في مجتمعه يوم فكر في الثورة. ألم يشر إلى مثل هؤلاء المالكين من قبل :

أيملك الملك والأسياف ظامئة
والطير جائعة ، لحم على وضم
من لو رآني ماء مات من ظمأ
ولو مثلت له في الحلم لم ينم

لا أشك في أن أبا الطيب، كان يحاور جلساءه، فيطرح أفكاره ومبادئه، ولا يلقى تجاوباً، بل لا يلقى إلا الاعراض والنفور، وربما السخرية. كأن ناس مجتمعه وأمراءهم، قد تبلد حسهم، وارتضوا بالواقع، بل اعتبروه خير واقع يمكن أن يبلغوه. لذلك خلص إلى نتيجة مرة، تتضح في ما تدل عليه أبياته من مرارة. خلص إلى القناعة — المأساة بأن مجتمعه متفسخ، سطحي، جهول، متقاعس، حقود، فلا يطيق الحرّ فيه عيشاً. والحرّ في وعي الشاعر، هو الثائر، المتمرد، الذي يرفض كل نقص، وينطوي على كل القيم المثلى:

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية
شرّ على الحرّ من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق
تخطي إذا جئت في استفهامها بمن
لا أقتري بلداً إلا على غرر
ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً
إلا أحق بضرب الرأس من وثن.
فقر الجهول بلا قلب إلى أدب
فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

هذه صورة عجيبة لمجتمع عصر المتنبي، ولكنها شديدة الواقعية، فأفراده من القاعدة إلى قمة الهرم، سواسية، فقدوا كل ميزة إنسانية «تخطي

إذا جئت في استفهامها بمن» ، لذلك بات الحر يشعر أن العيش بينهم «شرّ من سقم على بدن» . بل الحر مستهدف ، كأنما هو يذكرهم دائماً بما هم فيه من نقص ، وفقر إلى أبسط الصفات الانسانية . إنه نقيضهم ، لذلك لا يلقى منهم إلا الرغبة في هلاكه ، والحقد عليه :

لا أقتري بلداً إلا على غرر
ولا أمر بخلق غير مضطغن

يواجهنا المتنبي بتحليل نفسي ، يتناول خصائص مجتمعه النفسية ، مبرزاً فيه الشعور بالنقص الذي يعاني منه ، تجاه كل ميزة ، أو خاصة رفيعة . هي نفس معقدة ، تضافر فيها الذل والخنوع والدونية والتبعية ، والاحساس بالقصور ، والرضوخ للأعجمي ، ولحكام هم أتباع الأعجمي ، يمارسون على الشعب القهر والعسف ، رغبة في الاحتفاظ بمراكزهم ، وطمعاً في مكاسب آنية ، فلا مطامح لهم ، ولا أخلاق ، ولا يمثلون في نظر الجماهير إلا الدجل والخيانة والتملق ، والرغبات الحسية الدونية :

ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً
إلا أحق بضرب الرأس من وثن

ولكن من شأن الحكام الفاسدين ، أن يشيعوا الفساد ، وأن يقتلوا روح المبادرة ، والنزوع الثوري ، ويخلخلوا النفوس بالرشاوى ، وإطماعها بالمكاسب الرخيصة ، وبذر الشقاق والنفاق ، وكل صنوف الإفساد والتملق . مثل هؤلاء الحكام أجدر بأن تحكمهم الماشية ، لا أن يكونوا حكاماً .

ولو لم يُـرْعَ إلا مستـحق
لـرتـبـتـه أسامـهـمُ المسامُ

بل هم أرانب، فعيونهم ترى الحقائق والقيم والمطامح، ولكنهم غافلون متغافلون، لا يعنون إلا بالملاذ والمآكل، فيموتون بالتخمة لا في الحرب، — والحرب عند أبي الطيب كفاح دائم في سبيل قضية مثلى، وهي تتخذ معناها الثوري من هذا المدلول — ، لذلك كان القتل الدواء الوحيد الذي يشفي الأمة منهم:

أرانب غير أنهم مـلـوك
مـفـتـحـة عـيـونهم نـيـام
بأجسـام يَـحَرّ القتل فيها
ومـا أقـرانها إلا الـطـعـام

لا بد أن نلاحظ العنف في كلمتي «يحر القتل». فالمتنبي لا يرى خلاصاً من الملوك، وهم إحدى مآسي العرب الكبرى، إن لم نقل المأساة الأولى، إلّا بالعنف، والقتل الشديد، وكأني به يريد لقتل الملوك أن يكون عنيفاً، إلى حدّ يشفي غليل الشعب لطول ما عانى منهم، ويكون نذيراً لكل من يتطلع إلى حكم الشعب.

والحق أن هؤلاء الحكام أسهموا إلى حد كبير في مأساة الشعب. لكم كان أبو الطيب يرى إلى الأرض الخيرة، فإذا هي تحفل بكل ما تشتهي، فلا يفوتها إلا الكرام، — ولا ننس أن الكريم من تحلى بصفات الثائر، التي ظلّ المتنبي في مختلف جوانب شعره وفكره، طوال حياته، يشدد عليها — .

بـأرض مـا اشتهيت رأيت فيها
فـلـيس يـفـوتها إلا الـكـرام
فـهلا كـان نـقص الأهـل فيها
وكـان لأهـلـهـا فيهـا التمام

وأدهى ما كان يؤلم المتنبي أن من يحكم الوطن العربي الأعاجم ، فإن رأيت أميراً عربياً ، فهو تابع ، يأتمر بأمر الأعاجم ! كاد ييأس ، فكيف يصلح أمر الأمة وهى على مثل تلك الحال. يقسو أبو الطيب على الشعب ، لأنه كاد يخلو من كل خاصة نبيلة ، فباتت الخصائل الدوارس أحق بالرثاء :

أحق عـاف بـدمـعك الهمـم
أحدث شيء عـهداً بها القِدَمُ

غير أن من شأن هذه القسوة إثارة النفوس ، وتحريضها على النبل والكرامة والهمم. أليس يثير الأمة على حكامها الأعاجم ، أشد ما تكون الإثارة ، وهو ينبهها إلى ذل العبودية ، وإلى من استعبدوها ، ممن لا أدب لهم ولا حسب ولا عهود ولا ذمم :

وإنما الـنـاس بالملوك وما
تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب
ولا عـهود لهم ولا ذمم
بكـل أرض وطـئتها أمم
تـرعى بـعـبـد كـأنها غنم

وهذا العبد الراعي حديث النعمة ، لم يبلغ الحكم لولا أن الزمان رديء :

يستخشن الخزحين يلمسه
وكـان يبري بـظفره القلم

وفي الوقت نفسه يقدم للشعب نموذجاً عن الرجل الثائر الرافض ، ويقارن بينه وبين محدثي النعم أولئك. فالمتنبي يشعر أن الطعن في الواقع الفاسد ، لا يغني عن نموذج رفيع الصفات ، يقتدي به الآخرون.

من هذا النموذج؟ إننا نلقاه في شخصه أولاً ، وقد كان دائماً صادقاً في ما ينعت به نفسه من صفات ، وفي صفات يلقيها على ممدوحيه ، وكأن الممدوح «قالب» يصبّ عليه الشكل الذي يريد. يقول في المقارنة بينه وبين محدثي النعم :

إني وإن لمت حاسديّ فما
أنـكـر أني عـقـوبـة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم
لـه على كـل هـامـة قـدم
يهابـه أبسـأ الـرجـال بـه
وتـتقي حدّ سيفـه البهم[1]
كـفـاني الـذم أنني رجـل
أكـرم مـال مـلـكتـه الكرم

---

(١) أبسأ الرجال : آنسهم — البهم : جمع بهمة وهو البطل.

يجني الغنى للئام لو عقلوا
ما ليس يجني عليهم العدم
هـــمُ لأمـوالهم ولسـن لهم
والعـار يبـقى والجرح يلتئم

لِمَ كان المتنبي عقوبة لحاسديه؟ ولِمَ كان محسّداً؟ لا لمال، ولا لملك، ولكن لصفات تميزه من غيره، فتكشف عجزهم، وعورات نفوسهم. فبينا هو المتمرد المتعالي، الكريم، المهيب، يجلل محدثي النعم اللؤم والعار، ولا ينفعهم غناهم، لأنه يجر عليهم ما لا يجرّه الفقر، إذ يبرز لؤمهم بإمساكهم المال وحرصهم عليه في مواضع الإنفاق، بكلمة واحدة لا يحسنون وضع الأمور في مواضعها، وتلك صفة من صفات الجهل وضعف الإدراك، ولا يكون رجلاً من اتصف بها.

كان يحز في نفس المتنبي أن يمدح الكثيرين ممن مدح. فهو يدرك أنهم غير جديرين بمدحه. ولكنها مهنة الشاعر، ولم يكن ذلك عيباً، كما أشرت من قبل.

على أننا لا بدّ أن نتساءل: أكان همّ المتنبي أن يمدح فحسب؟ نلاحظ أموراً ثلاثة:

١ــ أن أبا الطيب كان كثير التنقل، لا سعياً وراء الممدوحين، وإنما لأمر آخر، لم يشر إليه بوضوح، على أننا يمكن أن نستنتجه عبر إشارات كثيرة.

نذكر قصته مع أسود وادي الفراديس، ودعوته إياها إلى حلفه على ما يريده، فيأتيها الرزق من كل وجهة، هذا مع إشارته إلى كثرة العداة. ما هذا الرزق الذي وعدها به؟ ليس المال، دون ريب.

كذلك وصفه تجوابه في قصيدة مدح بها بدر بن عمار ، ومطلعها :

أبعد نأي المليحة البَخَل
في البعد ما لا تكلف الإبل

فهو يصف حالاً من التشرد والاضطراب ، وتنكر الأصدقاء ، تثير التساؤل عن الأسباب ، مع أنه كان في كنف بدر بن عمار ، تلك المرحلة . يقول :

ومَهْمَهٍ جبته على قدمي
تعجز عنه العرامس الذُّلُلُ[1]

بصارمي مرتد ، بمخبرتي
مجتزيء ، بالظلام مشتمل

إذا صديق نكرت جانبه
لم تعيني في فراقه الحيل

في سعة الخافقين مضطرب
وفي بلاد من أختها بدل

ثم لماذا التشديد على كونه مدرعاً بصارمه ومخبرته واشتماله بالظلام؟ ولماذا لا يقرُّ به قرار؟

هذا هو في الفترة ذاتها ، يشير إلى هذا الاضطراب والقلق ، مع التذكير بقيمه وصبره وتجلده ، وترفعه :

---

(١) العرامس : النوق الصلاب.

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت
وإذا نطقت فإنني الجوزاء
وإذا خفيت على الغبي فعاذر
أن لا تراني مقلة عمياء
شيم الليالي أن تشكك ناقتي
صدري بها أفضى أم البيداء
فتبيت تسئد مسئداً في نيها
إسآدها في المهمه الإنضاء[1]

لِمَ هذا الرحيل الدائم؟ ومن هم الأغبياء الذين لم يستطيعوا فهم أبي الطيب؟ وما الذي جعله يركّز على خفائه عليهم؟ وما كان بينه وبينهم؟ مما يلاحظ هنا أن إشارات المتنبي غير واضحة. كأنما لا يريد أن ينبه إلى أمر في نفسه.

غير أنه في قصيدة أخرى، يكشف عن بعض ما كان يضمر، وإن لم يعمد إلى الوضوح التام. بيد أن ثمة كلمات ذات مغزى:

عذيري من عذارى من أمور
سكنَّ جوانحي بدل الخدور[2]

---

(١) الإسآد: السير دون توقف. معنى البيت: تسير الناقة في البيداء، ويسير الهزال في شحمها.

(٢) عذيري: أي من يعذرني.ـــ العذارى: قصد بها الخطوب العظيمة.ـــ يشير إلى عظم الخطوب والقضايا المستقرة في ذاته.

ومبتسمات هيجاوات عصر
عن الأسياف ليس عن الثغور[1]

ركبت مشمراً قدمي إليها
وكل عذافر قلق الضفور[2]

أواناً في بيوت البدو رحلي
وآونة على قتد البعير[3]

أعرض للرماح الصمّ نحري
وأنصب حر وجهي للهجير[4]

وأسري في ظلام الليل وحدي
كأني منه في قمر منير[5]

فقل في حاجة لم أقض منها
على شغفي بها، شروى نقير[6]

---

(1) الهيجاوات: الحروب.— رب حروب تبتسم عن السيوف لا عن الثغور.— جعل امتشاق السيوف ولمعانها كالابتسامات لسعادته بالحرب.

(2) مشمراً: مسرعاً (التشمير كناية عن الجد والإسراع).— العذافر: العظيم والشديد من الإبل.— الضفور: ج الضفر وهو النسع تشد به الرحال.— قلق الضفور: كناية عن الهزال لشدة إجهاده.— أسرعت إلى الحرب راجلاً أو راكباً (أي في كل حال).

(3) القتد: خشب الرحل.— البيت تعبير عن كثرة تنقله وارتحاله.

(4) أتحدى الرماح الصلاب، وأعرض وجهي لقيظ الظهيرة.— البيت تعبير عن تحدي المخاطر، في كل الأحوال والظروف.

(5) البيت تعبير عن صلابة المتنبي وعن معرفته بالطرق واهتدائه إلى ما يريد.

(6) الشروى: المثل.— النقير: النكتة في ظهر النواة، يضرب بها المثل لكل حقير تافه.— ثمة حاجات لم أبلغ منها ما أريد.

ونفس لا تجيب إلى خسيس
وعين لا تدار على نظير[١]
وكف لا تنازع من أتاني
ينازعني سوى شرفي وخيري[٢]
وقلة ناصرٍ جوزيت عني
بشرّ منك يا شرَّ الدهورا[٣]
عدوي كل شيء فيك حتى
لخلت الأكم موغرة الصدور [٤]
فلو أني حسدت على نفيس
لجدت به لذي الجدّ العثور [٥]
ولكني حسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور [٦]

ما هي الأمور التي سكنت جوانحه، فأورثته الإيمان بالحرب، فشدّ اليها معرضاً نحره للرماح؟ أليست هي تلك «الحاجة» التي لم يُبِنْ عنها،

---

(١) ترفض نفسي كل خسيس، ولا ترى عيني نظيراً لي.

(٢) أنا كريم أهب من جاءني بحاجة كل ما شاء إلا شرفي وكرامتي.

(٣) لا ناصر لي في الزمن الرديء إلا عزمي.

(٤) كل ما في هذا الزمن الرديء عدوي، لمطامحي، وإيماني بالحروب (أشار إلى ذلك في الأبيات السابقة).

(٥) و(٦) لو حسدني الناس على نفيس لكرمت به على المحروم. ولكني حسدت على حياة بائسة لا خير فيها.

والتي لم يجد له ناصراً فيها؟ والدهر — وهو هنا بمعنى العصر — لِمَ كان كل شيء فيه عدواً لأبي الطيب؟ أليس ذلك لمطامحه التي عجز عنها ناس عصره؟

هذا القلق، لا يكمن في الترحال وعدم القرار في مكان، بل يكمن، أصلاً، في قلق النفس على أمور عظام. وقلق العظيم مصدره دائماً الصبوة إلى الأهداف الكبرى، ومن أجل قضايا ذات صلة بالمصائر.

يتضح كل ذلك، من ثورة أبي الطيب على ناس عصره، عامتهم وأمرائهم، إذ لم يجد فيهم جديرين بحمل الرسالات الكبرى، في مرحلة كانت فيها الأمة أحوج ما تكون إلى الرجال. وقد ذكرت الكثير من النماذج على موقف المتنبي من ناس عصره.

لا بد من الإشارة هنا، إلى أمر يسترعي متتبّع شعر المتنبي، هذه المرحلة. وهو أنه كان يقوم برحلات سرية، وحيداً، رغم أنه كان في كنف بدر بن عمار. تكتفي قصيدته التي يخاطب فيها أسود وادي الفراديس للتدليل على ذلك. فإذا قرأنا حديثه عن رحلاته تلك، بعودته مراراً إلى وصف رفاقه الثائرين، جاز لنا أن نستنتج أنه كان يلتقيهم سراً في البادية، على حدود العراق أو دون ذلك، وأن هذه الصلة كانت ذات هدف واحد، وهو إعادة تنظيم حركته السابقة. ولا أعتقد أنني أغالي في هذا الاستنتاج، إذا علمنا أن أبا الطيب، حين عاد إلى الكوفة، بعد ثلاثين سنة من مبارحتها، استطاع في أيام أن يجهز جيشاً انتصر فيه على القرامطة الذين حاولوا احتلال الكوفة. ولو لم تكن صلته برفاق الأمس مستمرة، ولو لم يكونوا يعملون سراً، لما أمكن تجهيز ذلك الجيش، خاصة وأن أبا الطيب هو الذي قاده إلى المعركة وانتصر به.

٢ ــ الملاحظة الثانية أن أبا الطيب كان يفخر بنفسه كثيراً في قصائد المديح، ويغلو في الفخر، حتى ليبدو الموقف نابياً ــ بمقياس المدائح ــ ولكن المتنبي لا يكترث لذلك، فللممدوح أن يلبسه الصفات الكريمة، وللشاعر أن يقول ما يريد، في الفخر أو الغزل أو غير ذلك.

نذكّر، في هذا المجال ببيت من أبيات أوردناها من قبل:

وكيف لا يحسد امرؤ علم
له على كل هامة قدم

ليس هذا فخراً فحسب، بل هو إذلال لكل الناس المتخاذلين، ممن كان يلقاهم حيث مضى، وانتقام من صَغَارهم وتفاهتهم.

ومن عجب أن الممدوحين كانوا يرضون بكل هذا، ولا يجرؤون على مفاتحته فيه. مع ذلك، هل كان أبو الطيب راضياً عن هؤلاء الممدوحين؟ لقد احترم بعضهم، ولكنهم نادرون. غير أنه لم يجد، حتى في الندرة منهم، من كان جديراً بكل ما كان يتطلع إليه. وهنا نبلغ الملاحظة الثالثة.

٣ ــ لقد يئس المتنبي من الأمراء والرعية. كان جاداً في البحث عن الرجال، من القادرين على حمل عبء الأمة. فلم يقع إلا على الفراغ:

وإنما نحن في جيل سواسية
شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق
تخطي إذا جئت في استفهامها بمن
لا أقتري بلداً إلا على غرر
ولا أمرّ بخلق غير مضطغن

ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً
إلا أحق بضرب الرأس من وثن

لذلك ينفض يده من البشر جميعاً ، ملوكاً ورعية . ويصرح بأنه مدح غير الجديرين ، ويصمم على الثورة ، فلا سبيل إلى تحقيق الأهداف إلا بها :

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم
قصائداً من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة
إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن
فلا أحارب مدفوعاً إلى جدر
ولا أصالح مغروراً على دخن
مخيم الجمع بالبيداء يصهره
حرّ الهواجر في صم من الفتن

ولكن بمن يثور؟ من هم الثائرون الذين يعوّل عليهم؟ هل كان على صلة ، سراً ، برفاقه السابقين؟ واضح أنه ينذر بالثورة ، وكأنه يذيع بياناً جديداً بها . فأين هم رجاله؟ يصفهم في قصيدة أخرى فيقول :

وإن عمرت جعلت الحرب والدة
والسمهري أخا والمشرفيَّ أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً
حتى كأن له في قتله أربا

قح يكاد صهيل الخيل يقذفه

عن سرجه مرحاً بالعز أو طربا

فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي

والبِرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا

هذه الصفات، تذكر بالصفات التي نعت بها رفاقه في قصيدته — البيان، ونذكر منها:

بكل منصلت ما زال منتظري

حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة

ويستحل دم الحجاج في الحرم

خصائص البطولة، ومنها طلب الموت في سبيل الهدف، واحدة في القصيدتين. ولا بد أن نلاحظ كذلك، إفصاح المتنبي عن هوية هؤلاء الرفاق، بقوله: «قح» أي عربي خالص النسب.

لا بد هنا من أن ننبه إلى الحرب «الوالدة». أدع هنا التذكير بقيمة الأم في نظر أبي الطيب، مع علمنا أنه فقد والدته وهو طفل، وأن جدته لأمه ربته ورعته، فكان يدعوها بأمه، ويقدرها فوق كل تقدير — وذلك واضح في رثائها، وفي محبتها إياه، حتى ليقتلها حبه.

لقد جعل من الحرب أماً، لما في الأم من معنى الشمول والبدء، وموضع الحنان والعطف. وأن تكون الحرب أماً، هو أن تتعرف بها إلى الوجود، فكما أن الأم تدفع بك إلى الوجود، كذلك الحرب تمنحك قيمتك الوجودية، فأنت دونها موجود معدوم. وكما تلقى في حضن الأم

راحة نفسك وطمأنينتها ، كذلك تطمئن في انتسابك إلى الحرب ، أي الثورة ، إلى تحقيق مطامحك ، والوثوق من مصيرك ، وقبضك على زمام قدرك .

كان المتنبي يحن إلى الحرب ، ويسعى إليها ، ويعدّ لها طوال حياته . والحرب دائماً ، تلك الثورة العارمة ، تبدأ بها كل المنطلقات النبيلة . فهي مبدأ التحرر ، وهي التي تمنح من ينتسب إليها قيمه ، فلا قيمة لامرىء إن لم يكن ثائراً — محارباً — . وهي التي تخلق الانسان من جديد ، فيصفو خُلُقاً ، ويسمو إنساناً ، ويغدو نموذجاً ، ويعلو محتداً ، فلا قيمة لأصل ، إلا إذا كان الأصل الثورة . وقد نبه المتنبي إلى هذا المعنى عشرات المرات . من ذلك قوله :

جهلوني وإن عمرت قليلاً
نسبتني لهم رؤوس الرماح

على أن تصميم المتنبي على الثورة ، يتضح أكثر ما يتضح ، في رثائه جدته . كان قد يئس من إثارة الهمم ، خلال الفترة التي تلت خروجه من السجن . وكان ، في ما أعتقد ، على اتصال سري بأعوانه السابقين في منطقة الكوفة . فعزم على العودة إليها ، ليبدأ من جديد ، ما حاوله من قبل .

تعلم جدته بعودته ، فترسل إليه من يستعجله العودة . ولكنه يمنع دخول الكوفة ، فيكتب إلى جدته ، يسألها المسير إليه . فيغلب الفرح بكتابه عليها ، فيقتلها فرحها .

أدع أبيات الرثاء ، وما فيها من ألم وحرقة وفجيعة وانكسار وحنق ، وأورد الأبيات التي تنبىء عن عزمه :

ولـو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أما
لئن لـذ يـوم الشـامتين بيـومـها
لـقـد ولـدت مني لأنفهم رغماً
تـغـرب لا مستعظماً غير نفسه
ولا قـابلاً إلا لخالـقـه حكـمـا
ولا سالـكاً الا فـؤاد عـجاجـةٍ
ولا واجـداً إلا لمكـرمـة طـعما
يقولون لي ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي! ما أبتغي جلّ أن يُسمى
كـأن بنيهم عـالمون بـأنني
جـلوب إليهم مـن معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من أن أجمع الجَدّ والفهما
ولـكـنني مسـتـنصر بـذبـابـه
ومرتكب في كل حال به الغشما
وجـاعـلـه يوم الـلـقـاء تحيتي
وإلا فلست السيد البطل القرما
إذا فلّ عزمي عن مدى خوف بعده
فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما
وإني لمن قـوم كـأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني
ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ينطلق أبو الطيب من الثقة المطلقة بالنفس، وهي ثقة إن لم تكن في أصل تكوين الثوري، لم يكن ثورياً مطلقاً. يعلم الثوري أنه التحدي الكبير، يواجه صعاباً أقلها الموت. ويدرك أن العبء الذي حمله على عاتقه أضخم من أن يحد، وأن رسالة التغيير تقتضيه أن يتمرّس بالعقبات الجسام، ليزيلها من طريق المستقبل. هذا الادراك، إذا لم يرتكز إلى ثقة خالصة في النفس، لا تقبل المقارنة بينها وبين العوائق، لأنها أسمى من كل مقارنة، حتى أن الثائر يستهين بكل ما عدا ثقته بذاته، هذا الادراك، إذا لم يكن كذلك، تحول إلى لغو، يستند إليه الخائر، ليبرر خوره وقصوره.

والمتنبي من هذا النوع الواثق بالذات، ثقة غدت طبعاً، فلا تحتاج إلى تفسير وتوضيح. قد يعتريه، بين حين وحين، يأس أو قنوط، ولكن من الآخرين. بيد أنه لا يخامره أدنى شك في ثقته بذاته. ثم هو إن راوده القنوط لا يلبث أن يتمرد عليه، كفعله في أول مدحة له في كافور، فقد بدأها بما يوحي باليأس الكبير، واشتهاء الموت «العادي»، — وهو منتهى اليأس —، (وأنا أعذره، فمن تحمله الظروف على مدح كافور، رغم ما كان في ذات المتنبي من مطامح أسرّها في نفسه، فهو قمين باشتهاء الموت). يقول:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وإذ يرى أنه كشف عن يأسه الكبير، انتفض على ضعف راوده تجاه اضطراره لأحقر موقف (مدح كافور ولو كان يطمح من ورائه إلى ولاية)، وبرر اشتهاء الموت «العادي»، بأنه بسبب خلو المجتمع من صديق صحيح، أو عدوّ حقيقي:

تمنيتها لما تمنيت أن ترى
صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

والثائر، متحدٍ، مؤمن بالذات، رغم غربته، موغلٌ في الكفاح، ساع إليه، ومثله الأعلى كبرياء النفس وكرامتها.

لا بد هنا من أن نتساءل: من هم الشامتون الذين شمتوا بموت جدة أبي الطيب؟ إنهم دون ريب من منعوه دخول الكوفة، وشمتوا إذ رأوا جدته تقضي، دون أن يطيق العودة لرؤيتها. يوضح ذلك إنذاره إياهم بأنه سيرغم أنوفهم ويذلهم ويقهرهم. إنهم إحدى العقبات في طريقه، ولا بد أن تزال. ولعل مما يقتل النفس، أنهم عقبة، رغم أنهم من التفاهة بحيث تشغلهم الأمور الصغيرة، فيفرحون إذ كانوا سبب منع المتنبي رؤية جدته قبل موتها.

هؤلاء أنفسهم، لصغارهم، يستغربون مطامح المتنبي. فيطرحون اسئلة تنبيء عن حقارة نفوسهم: ما صانع هذا الرجل، وما يبتغي من سعيه؟ وكأني بهم يحاولون السخرية من أبي الطيب، تبريراً لقصورهم، واستصغاراً لأمره. فيرد ذلك الرد الحاسم: «ما أبتغي جلّ أن يسمى». فما هذا الذي جلّ عن التسمية؟ إنه تحقيق مطامحه بالقضاء على الحكام وتحرير البلاد منهم، وهذا واضح في قوله:

كـــأن بنيهـــم عـــالمون بـــأنني
جلـوب إليهـم مـن معادنه اليتما

يدرك أن الحظ لا مجال له في تاريخ من أدركوا ما يجب أن تكون عليه المواقف، ومن وعوا الواقع وسبل تغييره، فلا سبيل إلى جمع الحظ والفهم [والفهم إدراك ما أشرت اليه]، ولو جمعت النار والماء في يد واحدة. هذا الادراك، يجعل أبا الطيب في الموقف الثوري السليم، وهو بلوغ الأهداف بالثورة الدائمة، وقد رمز إلى ذلك بالاستنصار بالسيف، وعدم المبالاة بشيء غير ذلك:

ولـــكـــنني مســـتـــنصر بـــذبـــابـــه
ومرتكب في كل حال به الغشما

تلك هي ارادة البطل الثائر، والبطولة في نظر أبي الطيب، هي الثورية، ومن يرجعْ إلى صفات البطولة في شعره، يدركْ أنها صفات الثورية ذاتها:

وجـاعـلـه يـوم الـلـقـاء تحيتي
«وإلا فلست السيد البطل القرما».

وانتساب الثائر، إنما هو للثورة والثائرين، من تأنف نفوسهم سكنى الجسد ما دام ثمة هدف لم تبلغه:

وإني لمن قـوم كـأن نـفـوسهـم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

لا يقصد بالقوم قبيلة أو عشيرة، كما حلا لبعضهم أن يستنتج من

البيت ، وقد عزله عن معنى باقي الأبيات. يستكمل أبو الطيب في هذا البيت المعاني السابقة ، ويؤكدها بانتسابه إلى قوم ، كل صفاتهم مثل صفاته ، فهم يؤمنون بالثورة طريقاً إلى ما يبتغون ، والموت في سبيل الحياة.

يخلص المتنبي أخيراً ، إلى التشديد على كل تلك المعاني الثورية ، فسيخوّض في الشدائد والمكاره ، ورائده كرامة الانسان ، ورفض الظلم مهما كانت أشكاله.

توكيداً لما ذكرت من إنذاره خصومه ، وتجرده للقضاء عليهم وعلى ظلمهم ، أورد البيتين التاليين ، فقد استعظم بعضهم ما جاء في البيتين الأخيرين من رثائه جدته (كذا أنا يا دنيا ، وما بعده) ، فقال :

يستعظمون أبيّاتاً نأمت بها
لا تحسُدنَّ ، على أن ينأم ، الأسدا

لو أن ثم قلوباً يعقلون بها
أنساهم الذعر مما تحتها الحسدا

فهو يشير في البيت الثاني إلى أنهم لو كانوا عقلاء ، لأدركوا ما انطوت عليه الأبيات ، ولانقلب حسدهم إلى ذعر ، لأنه لا يبغي إلا القضاء عليهم ، وتحرير البلاد منهم.

* * *

إشارات

أستخلص مما سبق إشارات تنبىء عن أهداف المتنبي ومطامحه ، محاولاً الاجتزاء بأبرزها :

١ــ الانطلاق من واقع فاسد ، يدرك الشاعر كل مفاسده ، ومصاعبه . وهو واقع يُمِضُّ النفس ، ويقتل روح البقاء :

وما أرمت على العشرين سني
فكيف مللت من طول البقاء

* * *

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثل ما تهب اللئام

٢ــ ذلك أن المجتمع خسيس تافه ، لا يسمو فيه إلا كل خسيس تافه :

وشبه الشيء منجذب إليه
وأشبهنا بدنيانا الطَّغام

٣ــ والوطن ، بأرضه وسمائه ، جميل ، فيه كل ما تشتهي النفس ، لولا أنه يفتقر إلى الكرام :

بأرض ما اشتهيت رأيت فيها
فليس يفوتها إلا الكرام
فهلا كان نقص الأهل فيها
وكان لأهلها منها التمام

٤ــ والناس جميعاً صغار النفوس ، وإن كانت لهم جثث ضخام :

ودهــري نــاسه نــاس صــغــار
وإن كــانت لهم جثث ضخام

٥ــ والملوك أرانب ترى عيونهم المجد وحميد الخصال والأفعال ، ولكنهم يتغاضون عنها ويتجاهلونها لضآلة في ذواتهم ، فليسوا جديرين إلا بالقتل :

أرانب غير أنهم مــــلوك مـفـتـحـة عـيـونهم نـيام
بـأجسام يحر الـقـتـل فيها ومـا أقـرانها إلا الـطـعام

٦ــ والجمهور كالغنم ، وملوكها كالعبيد :

بـكـل أرض وطـئتها أمم تـرعى بـعـبـد كأنها غنم

٧ــ ومعظم ملوك العرب من الأعاجم ، فلا فلاح لهم :

وإنما الـنـاس بالملوك وما تـفـلح عرب ملوكها عجم

٨ــ والناس مثل العصر ، ففي الزمن الرديء ، لا يطفو على السطح إلا أردأ البشر :

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنـا بـدنـيـانا الـطـغام

٩ــ يجمل المتنبي خصائص «أهيل» عصره في بيتين شهيرين ، فإذا هم جهلة لا علم لهم ولا ثقافة ، أوغاد لا إرادة لهم ، بخلاء كالكلاب ، عمي البصيرة والبصر ، غافلون عن المجد ، لأنهم أجبن من قرد :

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عم   وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

هذا ، وقلما عني أبو الطيب بتفاصيل الوضع الاقتصادي ، فكأنما كان يعنيه الجانب السياسي ، ومأساة الفرد العربي ، والمجتمع العربي ، وما يعانيان من تشويه. على أنه ركّز دائماً على أمرين :

الأول هو الطموح القومي إلى التحرر بالثورة ، والقضاء على سيطرة الأعاجم ، وبناء الدولة من جديد ، بناء يتناسب مع العزة القومية ، والطموح إلى مصير عظيم.

أما الثاني فهو أن الإنسان العربي ، فرداً وجماعة ، هو سبيل البناء ، رغم التشوه ، والعقبات ، والفساد المستشري. لذلك شدّد المتنبي على إثارة النقص في أخلاق الجمهور والفرد ، كما شدّد على النموذج الذي يجب أن يطمح إليه العربي ، وهو نموذج منتزع من خصائص الإنسان العربي خلال تاريخه الطويل ، فلا يقدم الشاعر إليه ما يدعو إلى استغرابه ، بل ما يثير نخوته ، ويفجر طاقته ، في ردّه إلى تاريخه الذاتي.

ولا بد أن نشير مرة ثانية ، إلى أن أبا الطيب لم يحدّد دستور الدولة التي يطمح إليها ، لأن الدستور قائم ، وهو الإسلام ، وما أحسب المتنبي فكّر في تغييره ، بل أعتقد أنه كان يرى فيه دستوراً صحيحاً ، ولكن الحكام استغلوه لمصالحهم ، فخالفوه. فإذا طبق بحذافيره ، ساد العدل ، والحرية ، والمساواة ، وانطلق المجتمع في طريق البناء.

ولعل أبا الطيب ، لهذا السبب ، لم يعنَ بالجانب الاقتصادي ، فكأنما هو جزء من الفساد العام ، الذي لا يمكن القضاء عليه ، إلا بالتغيير الشامل ، تغيير السلطة ، وتغيير ما بالأنفس.

مع ذلك، نجد بين الحين والحين إشارات، لا تغني كثيراً، ولكنها توحي بأن الشاعر كان يعي المأساة الاقتصادية. من ذلك دعوته إلى الثورة على الفقر، فإما القضاء عليه، وإما الموت:

إذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعداً
فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا

إذن، يعرف الشاعر الواقع، ومفاسده، ويعرف أن الانطلاق لا بدّ أنْ يكون من هذا الواقع، أي من الرغبة في تغييره، فما الذي يطمح إليه؟ نجمل ذلك في ما يلي:

١ — الدعوة إلى الثورة على الواقع الفاسد، واقع المجتمع وواقع الحكّام وواقع الوضع كله. هذه الدعوة مبثوثة في مدائحه، وفخره، وقصائد أخرى أشهرها «القصيدة البيان السياسي».

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا
ومن عصا من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم
وإن تولوا فما أرضى لها بهم

* * *

إلى أيّ حين أنت في زيّ محرم
وحتى متى في شقوة وإلى كم
وإلّا تمتْ تحت السيوف مكرماً
تمت وتقاس الذلّ غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد
يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم...

٢ــ وهي ثورة دامية ، لا تحلل ولا تحرم ، وما تكون الثورات إلا إذا كانت دامية :

تنسي البلاد بروق الجو بارقتي
وتكتني بالدم الجاري عن الديم

* * *

لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة
والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها
حتى كأنّ بها ضرباً من اللمم

٣ ولا يقوم بالثورة إلا الثائر ، من اتّصف بالمضاء ، والشجاعة ، والعنف ، والإقبال على الموت ، ورفض التراجع ، وإباء الذل :

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم
وكلما نطحت تحت العجاج به
أسد الكتائب رامته ولم يرم

* * *

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ
كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا

كثير إذا شدّوا قليل إذا عدوا

٤ــ ولكن، لِمَ الثورة؟ ليقضي على «دولة الخدم» ــ الدولة العباسية ــ ، وعلى ملوك لا شرف لهم من الملك إلا الإسم، ملوك ضعفاء، لو مثل لهم المتنبي في المنام، فرّ النوم من أجفانهم، ولو رأوه ماء ماتوا من ظمأ :

أيملك الملك والأسياف ظامئة

والطير جائعة لحم على وضم

من لو رآني ماء مات من ظمأ

ولو مثلت له في النوم لم ينم

* * *

أرانب غير أنهم ملوك

مفتحة عيونهم نيام

* * *

٥ــ ذلك هو المجد الذي يطمح إليه المتنبي ويحلو في سبيله الموت.

إن لم أذرك على الأرماح سائلة

فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

* * *

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى

تساوى المحايا عنده والمقاتل

فموتي في الوغى عــيشي لأني
رأيت العيش في أرب النفوس

* * *

فاطلب العزّ في لظى ودع الذلّ ولو كان في جنان الخلود
فرؤوس الرماح أذهب للغيظ وأشفى لغلّ صدر الحقود

* * *

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي جلّ أن يسمى

* * *

ذكـرت جسيم مـا طـلبي وأنّا
نخاطـر فـيـه بـالمهج الجسام

* * *

أما النموذج الذي يتجلى في شعر المتنبي هذه المرحلة، فموضوعه شخص المتنبي، بوجه خاص، ثم رفاقه في الثورة، ثم بعض ممدوحيه. وخصال النموذج كثيرة جداً، نكتني منها بقدر. ولعل في طليعتها تبل الخلق، شرط ألا يفهم من الخلق تعقل العاجز. فهذا التعقل لؤم في الطبع:

كـل حِـلم أتى بـغير اقـتـدار
حـجـة لاجىء إليهـا الـلـئـام

ونبل الخلق هو الذي يحفز على الفضائل. وأولها أن يكون المرء ثائراً يرفض الضيم، ولا ينام عن المجد:

لا افتخار إلا لمن لا يضام
مدركٍ أو محارب لا ينام

والثائر مؤمن بذاته وقدره، مترفع، متمرد:

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي
واقفاً تحت أخمصي الأنام
أقراراً ألذ فوق شرار
ومراماً أبغي وظلمي يرام؟

ولكنه ثائر متمرد يعرف غاية ثورته، ألا وهي اجتياح البلاد والقضاء على حكامها الجبناء:

دون أن يشرق الحجاز ونجد
والعراقان بالقنا والشام

وهو يعرف أن من كانت تلك مطالبه، فلا بد أن تعترضه العقبات الجسام. ولكنه يتخطاها هازئاً بالصعاب والموت، مثيراً الرعب في النفوس. معملاً السيف في كل من يتصدى:

وما بلغت مشيئتها الليالي
ولا سارت وفي يدها زمامي

إذا امـتـلأت عـيـون الخيـل مني
فـويــل في الـتـيـقـظ والمنـام

* * *

ولا أظـن بـنـات الـدهـر تتركني
حـتـى تسـدَّ عـليها طرقها هممي

وهو إلى ذلك المثقف الواعي ، المدرك :

أنـا تـرب الـنـدى ورب القوافي
وسمام الـعـدى وغـيـظ الحسود

وهو من إدراكه فساد الناس والملوك ، قد امتلأت نفسه بالحقد ، فإذا نكزته الأفعى قتلها سمّه :

يحاذرني حـتـفي كـأني حـتـفـه
وتـنـكـزني الأفـعـى فـيـقـتلها سمي

ولا نسب له إلا الثورة والتمرد :

جـهـلـوني وإن عـمـرت قـلـيلاً
نســبـتـني لهم رؤوس الــرمـاح

وينبو عن كل لهو وتزين ، ولا يميل إلا إلى الحرب ، أي الثورة :

لا تحسن الوفرة حـتـى تـرى
منشـورة الضـفـريـن يـوم القتال

على فـتـى مـعـتـقـل صـعـدة

يعلـهـا من كـل وافي السبال

* * *

هذا قليل من كثير، يؤكد دائماً على أن الثورة في صميم حياة المتنبي وفكره ورؤياه. فهي البداية وهي النهاية، وأن الثائر هو النموذج الحي الوحيد، الجدير بالبقاء.

— ٣ —

تبدأ مرحلة جديدة من حياة المتنبي ، يصعب وصفها ، وإن كانت أقرب إلى الفراغ والضياع والقلق والتشرد ، يمكن تحديدها بين وفاة جدته وبين لقائه سيف الدولة. تارة هو في بغداد[1] ، ومرة في أنطاكية ، وحيناً في دمشق ، وطوراً قرب السلمية أو المعرة.

تجدر الإشارة إلى أنَّ نسخ الديوان ، وأخبار أبي الطيب في كتب الأدب والتاريخ ، لا تتفق على تواريخ تلك الأخبار ، والقصائد التي نظمت هذه المرحلة. لذلك تقع على تقديم وتأخير ، واضطراب ، مما لا يعنينا ، على كل حال ، إذ الغاية من الدراسة رسم صورة عن واقع المتنبي الثوري ، لا البحث التاريخي.

يبدو المتنبي هذه الفترة ، كمن شعر أن دوره انتهى ، ولكنه يقاسي من صراع حاد بين ما آل إليه ، وما كان عليه من أحلام عريضة. كان يشعر أن أعباء الأمة كلها على عاتقه ، فإذا هو رقم بين الأرقام ، يتحرك دون هدف ، ويتنقل دون غاية.

---

(١) يجمع الرواة على أن أبا الطيب حين منع دخول الكوفة ، يوم أرسلت جدته تستدعيه ، قصد بغداد ، وبعث إليها برسالته من هناك.

لقد غدا التشرد الروحي كل كيانه. إلى أين يمضي؟ ماذا يريد؟ أين رفاق الثورة؟ أيمكن أن تنطوي الأحلام دفعة واحدة؟

لم يتبدل الواقع الفاسد، بل ازداد فساداً واستشراء! أيمكن لأبي الطيب أن يبدأ من جديد، ولا قاعدة شعبية؟ لقد فقد قاعدته الشعبية التي امتد جمهورها بين الكوفة والسلمية، بل بلغت منطقة المعرة.

تراه حاول من جديد حين قصد منطقة السلمية؟ تراه عاود الاتصال بالتنوخيين لهذا السبب؟

قد لا نعرف شيئاً من كل ذلك، فقد ظلت الأجوبة طي الماضي. ولعل أبرز دليل على ذلك أن شعر المتنبي في هذه الفترة خلا من الإشارات إلى الأجوبة، إلا ما كان لمحاً.

على أن الخيبة واضحة. وقد انعكس ذلك على شعر المتنبي نفسه. فهو فنياً، دون شعره السابق، ودون شعره اللاحق، إلا ما كان في الهجاء أو الفخر[١]. مما يشير إلى حالة الفراغ والقلق والتشرد. فليس ثمة في ذاته، أي لون من ألوان الثبات أو التوهج.

فما حال شعر الفخر، وما علاقته بفكره الثوري، وبالقضية التي آمن بها؟

يوحي شعر المتنبي، هذه المرحلة، بأنه إنسان يحاول نسيان الحاضر المأساوي، بالماضي الحي، وتغطية الشعور بالنقص والخيبة والمأساة، بتذكر فترة العظمة والثقة والتوهج. شأنه في ذلك شأن من فرغت يده من

(١) بالطبع. لا نقصد بدايات نظمه. فتلك مرحلة الغرزمة.

كل مطلب. فتشبث بكل عزيز لديه، وتغنى بكل ما كان يبهر به الآخرين. ويتفوق عليهم، أو يتميز به منهم, يقول في أبي العشائر:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا ربُّ المعاني الدقاقِ

فهل قنع. بينه وبين نفسه، من الغنيمة بالشعر؟

وفؤادي من الملوك وإن كا
ن لساني يرى من الشعراء

هل يئس أبو الطيب من القدرة على تحقيق مطامحه؟ هل كان على قناعة من أنه فقد قاعدته الشعبية إلى الأبد؟

فجأة، يطالعنا في إحدى قصائده بهذه الصورة:

إذا شئت حفّت بي على كل سابحٍ
رجال كأنّ الموت في فمها شهد

وقبل ذلك. في القصيدة نفسها:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ
كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا
كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده
وضرب كأن النار من حره برد

فهل هذه صورة من الماضي؟ هل يشطح به الخيال؟ فيتصور أنه ما زال على ما كان عليه، وأن رفاقه ما زالوا ينتظرونه؟ هل يتوهم العزة والمنعة؟ هل يغريه أن يتغنى برفاق الماضي؟ أم أنه كان على صلة بهؤلاء الرفاق؟ أغلب الظن أن صلته بهم لم تنقطع، وأن هذه الصلة كانت عوناً له على الزمن الرديء، فإذا تغنى بهم فلأنه كان يرى فيهم صورة المستقبل. مع ذلك ثمة فرق كبير بين هذه الصور، وصورة تليها، يتفصد اليأس من كل جوانبها:

ومن نكد الدّنيا على الحرّ أن يرى
عدواً له ما من صداقته بدّ

لِمَ يرضى لنفسه أن يصادق حتى الأعداء؟ ربما تجنباً لأذاهم، وقدرتهم على إيذائه؟... أشعر أن أبا الطيب يحاول إنقاذ نفسه من مرارة الواقع، فيتعالى، وينذر، ولكن الواقع المرير يشدّه إلى مواجهة حقيقة ما آل إليه، فيذعن على مضض، ويقرّ بينه وبين نفسه، أن ذلك التعالي لم يكن إلا صرخات من غلب على أمره، صرخات ينفس بها من كربه، ولكنها لا تلبث أن تخلف وراءها إحساساً بالانكسار أشد.

غير أن الشعور بالانكسار والهزيمة، وبفقدان القدرة على تحقيق الأحلام، وضياع القاعدة الشعبية، وفراغ اليد من كل حيلة، لا يعني أبداً فقدان الإيمان بمثله التي كان يؤمن بها. إنها أبداً صورة المستقبل، الصورة الوحيدة التي بقيت له في عالم مزعزع، غير ثابت، مهزوز الأعماق والأصول.

لئن كان أبو الطيب قد أقرّ بالواقع الأليم، واقع مصيره كقائد ثوري، عزل عن قاعدته الشعبية ــ أي جماهير الكوفة ــ، فإنه ظل مؤمناً

بالثورة ، وبأنها لا بدّ يوماً أن تنفجر ، على يديه أو على يدي غيره ، لا فرق. ولذلك ظلّ يبشر بها في كل مجال. ولعلها في وعيه ، بعد ما قاسى ، أشد عمقاً ، وأكثر عنفاً :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقّاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى
لك الهبوات السّود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

ما زال المتنبي يعتقد أن الثورة طريق المجد. فالسيف رمز الثورة دائماً ، رمز الإنسان الثوري ، الذي يملأ الزمان والمكان بوجوده وحضوره ، ويضرب أعناق الملوك ، ويمضي في لجّ المعركة مع جيش الثوار اللجب ، مالئاً سمع الدنيا. والواقع أن أبا الطيب يربط بين الثورة والوجود ، فلا يحقق المرء وجوده إلا بالثورة ، أي أنه موجود بها. أما إذا استسلم لتيار الحياة اليومية ، تيار الدعة والاستقرار وطلب المتعة ، فإنه غير موجود. إن عليه أن يختار طريق الثورة ، ليثبت أنه موجود.

لا يستغربن مستغرب أن أبا الطيب لا يني يرسم لنفسه الصورة المثلى ، وكأنه النموذج الثوري الدائم ! قلت إن أبا الطيب لا ملاذ له إلا الماضي ، ولكن ذلك لا يعني أبداً أنه لم يكن مؤمناً بذاته. بل كان يزداد قناعة من

أنه النموذج ، كلما تطلع حوله فألفى المجتمع ، من القاعدة إلى القمة ، خصياً ، جديراً بأن تسفك دماؤه دون رحمة :

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس روّى رمحه غير راحم

لذلك كان يعود إلى الصفات الثورية النموذجية التي يجسدها ، يرسم صورة البطل علّها توقظ الآخرين ، أو تهز فيهم نخوة امحت أو كادت :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كلّ يوم سلامتي
وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
وأقدمت إقدام الأتي كأن لي
سوى مهجتي أو كان لي عندها وِتْر

على أن هذه الصورة ، ليست صورة في الفراغ . هي تنبىء عن إنسان يتحدى المصاعب ويتخطاها ، صامداً ، صابراً ، مقتحماً الموت ، ولكنه لا يموت ، فلا يفرح بسلامته ، بل يقبل على الموت ثانية وثالثة ورابعة ، لأن في ذاته أمراً — قضية — يودّ تحقيقها . فإذا حقق هدفاً ، انطلق إلى آخر ، وتلك هي صفة النضال الثوري المستمر . فالثورة الحقة لا تقف عند حدّ . والثوري يجد نفسه دائماً في صدام مع العقبات ، متحدياً ،

مقتحماً ، كأنما يريد أن يثأر من مهجته ، أو كأن له مهجتين ، إذا قضت واحدة ، عاش بالثانية ، ليقتحم من جديد.

مرة ثانية تفاجئنا ، في القصيدة ، صورة الرفاق الثوريين ، الذين يعمر قلوبهم الحقد على أهل الجور ، فيديرون كئوس المنايا بأطراف الرماح عليهم :

عليّ لأهل الجور كلّ طِمِرَّةٍ
عليها غلام ملء حيزومه غِمْرٌ[1]
يدير بأطراف الرماح عليهم
كئوس المنايا حيث لا تشتهى الخمر

فهل كان أبو الطيب على صلة برفاق الأمس؟ أم أن الخيال يشطح به ، والوهم يغريه بأنه ما زال قائد الثورة التي أعدها من قبل؟ أم هو ضرب من إدعاء من فقد الشيء ولكنه لا يريد أن يقرّ بفقده؟ أعتقد جازماً أن صلة المتنبي برفاق الأمس لم تنقطع يوماً ، والدليل القاطع على ذلك ، التفاف أهل الكوفة حوله بعد غياب ثلاثين عاماً تقريباً.

نلاحظ ، إلى ذلك ، ارتداد المتنبي إلى ذاته ، في معظم قصائد هذه الفترة ، فقلما نظم قصيدة إلّا وكان فيها نصيب من الحديث عن نفسه ، حتى لنشعر أن ذلك تعويض عن الشعور بالخيبة ، وربما اليأس. ورغم أن معظم الصفات التي يفخر بها ، يمكن أن تكون جزءاً من صورة البطل النموذج ، فإنها توحي بتلك الرغبة في التعويض. يقول في إحدى قصائده :

---

(١) الطمرة : الفرس الوثابة. — الغمر : الحقد. — أي : أعددت للظالمين خيولاً وثابة عليها فتيان عمرت صدورهم الأحقاد.

وإني لـتغـنيني من الماء نغبـة
وأصبر عـنـه مثلما تصبر الرُّبْدُ[1]
وأمضي كما يمضي السنان لطيتي
وأطوَى كما تطوَى المجلّحةُ العُقْدُ[2]
وأكبر نفسي عـن جزاء بـغيبة
وكل اغتياب جهد من ماله جهد
وأرحـم أقـواماً من العَيّ والغَبَا
وأَعـذِر في بـغضي لأنهم ضـدّ

ويقول في قصيدة ثانية :

فمالي ولـلـدنيا ! طلابي نجومـهـا
ومسعاي منها في شدوق الأراقم[3]
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا اتسعت في العلم طرق المظالم
وأن تَـرد الماء الذي شطره دم
فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم

* * *

(١) النغبة : الجرعة. — الربد : جمع أربد وهي صفة ذكر النعام إذا كان في لونه غبرة. والظليم يضرب به المثل للصبر على العطش.

(٢) المجلحة : من جلح : حمل على القوم. ويقصد هنا الذئاب. — العقد : ج أعقد وهو الذئب في ذيله اعوجاج أو عقدة...

(٣) الأراقم : ذكور الحيات. — مطلبي أسمى من النجوم، وطريقي إليه محفوفة بالمخاطر، فكأنها في أشداق الأراقم.

إذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك
وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

وينذر الأعداء في قصيدة أخرى بالقتل والدمار ، مشيراً إلى طبيعة التحدي فيه ، وإلى مخاطرته في الأقبال على الموت :

ولا بدّ من يوم أغر محجل
يطول استماعي بعده للنوادب
يهون على مثلي إذا رام حاجة
وقوع العوالي دونها والقواضب
كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول وباقي عيشها مثل ذاهب

وفي قصيدة أخرى ، يفخر بنفسه على كل سائل عن نسبه ، فما يفخر بالجدود إلا من يشعر بنقص ، ويفخر بسيفه ورمحه ، بل هو من بيّن الله به أقدار الناس ، وجوهرة يفرح بها الأشراف ويغص السفلة :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ
ـباحث والنجل بعض من نجلهْ
وإنما يـــذكـــر الجدود لهم
من نفروه وأنفذوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله
وسمهري أروح معتقله
أنا الذي بين الإله به الـ
أقدار والمرء حيثما جعله

جوهــرة تــفــرح الشراف بها
وغصَّة لا تسيغـها السفـلةْ

تستلفتنا كذلك هذه الفترة ثلاثة أمور ؛ علاقة أبي الطيب بسيفه وفرسه ومهره. واشتراكه في معركة ضد الروم عند انطاكية ، وتعرضه لمؤامرات العلويين.

أما السيف والفرس والمهر فرفيقة العمر ، والرحيل ، والاقامة ، والتشرد ، والتصدي ، والتحدي ، وخاصة الحرب رفيقة الثورة. ولكن ! أليست ، هذه المرحلة ، ملاذاً يلوذ به من بؤس الحاضر العقيم؟ أهي وسيلة التشبث بالماضي ، أكثر منها استشراف المستقبل؟ حتى لو كان الأمر كذلك ، فإنّ الرؤيا الشعرية ، تؤكد استشراف المستقبل ، ولا تلغيه.

يحسن بنا أن نورد وصف السيف ، في الأبيات التي جاءت مقدمة قصيدة مدح بها المتنبي أبا بكر علي بن صالح الروذباري في دمشق :

كـفـرنـدي فِرنـد سيفي الجُراز
لــذة الــعين عــدة لــلبراز
تحسب الماء خط في لهب النا
ر أدق الخطوط في الأحـــراز
كلما رمت لونـه منـع الـنا
ظـر موج كأنه منك هازي
ودقــيقٌ قــذى الهبــاءِ أنــيقٌ
مــتوالٍ في مســتوٍ هــزْهــازِ

ورد الماء فـــالجوانب قـــدراً
شربت والتي تـــليهـــا جـوازي

حـمـلـتـه حمائـل الـدهـر حتى
هي محتـــاجـــة إلى خـــراز

وهـو لا تـلـحـق الـدمـاء غراريـ
ـه ولا عـرض مـنـتـضيه المخازي

يا مـزيـل الـظلام عني وروضي
يـوم شربي ومـعـقلي في البّـراز

واليماني الذي لو اسطعتُ كانت
مــقــلـتي غـمـده من الاعـزاز

إن بـــرقي إذا بـــرقت فـعـــالي
وصـــلـــيلي إذا صللت ارتجازي

لم أحمّلك معلماً هكذا إلّا لضرب الـرقـاب والأجـواز

ولـقـطـعـي بك الحديـد عليها
فــكلانـــا لجنســـه الـيـوم غـاز

العلاقة بين المتنبي وسيفه قديمة حديثة ، ولكنها لا توصف بالحميمة فحسب . هي علاقة الثوري بسلاحه ، فهو آخر «معقل» له ، وطريقه الوحيدة إلى تحقيق أمانيه . بل إن السيف ، رغم صورته الواقعية ، رمز الثورة في وعي الشاعر . ولعلّ مما يجدر التنبه إليه ، بدء القصيدة بتشبيه جوهر السيف بجوهر المتنبي ، مما يؤكد تلك العلاقة الوطيدة . مع ذلك ،

أية ثورة يعني المتنبي هنا؟ يريد ضرب الرقاب والأجواز وقطع الحديد. ولكن أين، ورقاب من؟ أحسب أنها صورة من الماضي، تبهر في الحاضر المظلم، والتفات إلى القيم الثابتة، يستعيض به عن مواجهة الواقع المأساة! ولكنها صورة حقيقية، لا تلغى قيمتها، سواء كانت من الماضي، أو من الحاضر. **فالقيم ثابتة دائماً**، رغم دلالاتها على حال نفسية معينة.

هذه الفترة، كذلك، تكبس أنطاكية، أي يغزوها الروم، وبها ابو الطيب المتنبي، فيشترك في المعركة، فتقتل فرسه تحته، ثم مهره الطخرور. لا أريد هنا أن أتحدث عن شجاعة المتنبي، وليس أدل عليها من مقتل فرسيه تحته. ولكني أحب أن أستنتج أمرين، الأول أن أبا الطيب لم يشهد معركة للدفاع عن الوطن— وخاصة في عهد سيف الدولة— إلا وأسهم فيها. والثاني أن فجيعته بفرسيه كانت كبيرة، ولكن أثرها لا ينفجر حزناً، وإنما قسماً على الثأر. يقول:

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم
ستبكي شجوها فرسي ومهري
صفائح دمعها ماء الجسوم
قربن النار ثم نشأن فيها
كما نشأ العذارى في النعيم
وفارقن الصياقل مخلصات
وأيديها كثيرات الكلوم

ولا بد أن نلاحظ ، مرة أخرى ، هذا الحدب على السيوف التي سيثأر بها من الخصوم ، فيجعل دمعها ماء الجسوم . هو حدب يشعرنا أن السيف ملاذه الوحيد ، خاصة بعد أن فقد فرسيه ، وأقرب إلى نفسه من نفسه . ألم يجعل عينه غمداً له لو استطاع ، في القصيدة السابقة؟

الأمر الثالث الذي يسترعي ، هو عداء العلويين[1] . فقد ذكر ذلك مرتين. الأولى يوم كان المتنبي في الرملة ، فقد حاول زعيم العلويين القضاء عليه ، بأن دبر له مكيدة ، ففشلت. فاضطر أبو الطيب إلى الرحيل ، بعد أن «أسقط» عن خصمه نسبه ، لأن سلوكه يناقض نسبه :

وفارقت شرّ الأرض أهلاً وتربة
بها علويّ جده غير هاشم

أما المرة الثانية ، فيوم كان في «كفرعاقب» من أرض الشام . فقد أعدّ له ناس من السلالة العلوية رجالاً من السودان لقتله ، فخاب أملهم . يقول في ذلك مجرداً خصومه من نسب النبي :

أتاني وعيد الأدعياء وأنهمْ
أعدّوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جَدِّهم لحذرتهمْ
فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذب
إليّ لعمري قصد كل عجيبةٍ
كأني عجيب في عيون العجائب

---

(١) المقصود هنا حزب سلالة أبناء عليّ بن أبي طالب.

يؤكد هذا العداء بطلان دعوى العديد من الفرق العلوية [أي التي تنتسب إلى شيعة علي، على اختلاف مذاهبها]، أن المتنبي ينتسب إليها. فالاسماعيلية تنسبه إليها، والنصيرية تدعيه. حتى لقد ذهب بعض المؤلفين الى أن ابا الطيب: «علوي الهوى، إسماعيلي الفكر، قرمطي المذهب»، فجمع الأضداد في واحد. مع أن أبا الطيب حارب القرامطة وانتصر عليهم في الكوفة، بعد عودته إليها إثر هربه من مصر، وأن العلويين حاولوا القضاء عليه، وأن الاسماعيليين علويو الهوى، ولم يلتفوا حوله يوم أعلن ثورته، إلاّ لأنهم كانوا فلولاً بعد أن قضى البويهيون على قادتهم جميعاً فلم يهرب منهم إلا ثلاثة: أبو عبد الله الشيعي، ومحمد وزيد. مما لا حاجة إلى تفصيله.

ما زلت أعتقد أن المتنبي كان ذا مذهب خاص، لم أستطع الكشف عنه، مع الأسف الشديد، لعدم توفر الوثائق، ولعدم احتفال شعره بذلك. هذا مع العلم أن هذه الدراسة، لا تعنى بمذهب الشاعر، كما ألمحت منذ البداية، ولكنها ملاحظة عامة، جرت إليها محاولتا العلويين اغتياله.

أما مدحه أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي، فكان بعد أن رجاه ابن طغج مرات، وبعد أن بلغ من إلحاحه، أنْ قال لأبي الطيب: «عزمت أن أسألك قصيدة تنظمها فيّ فأجعلها فيه». والمعروف أن طاهر بن الحسين، حين وفد عليه المتنبي أجلسه على مرتبته، وجلس بين يديه، يستمع إلى إنشاده، وهو في حال أقرب إلى الخشوع.

هذا، إلى أن أبا الطيب، يشدد على تبرئة طاهر بن الحسين من نسب من حاولوا اغتياله من العلويين، متهماً إياهم بادعاء نسب النبي كذباً، بل مشيراً إلى أن النسب لا يعني الرفعة، إذا لم يقترن بالفعال الحميد، فمن لم

يكن من العلويين على خلق حميد ، مثل طاهر بن الحسين ، لم يكن جديراً بالنسب :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله
فماذا الذي تغني كرام المناصب
وما قربت أشباه قوم أباعد
ولا بعدت أشباه قوم أقارب
إذا علوي لم يكن مثل طاهر
فما هو إلا حجة للنواصب

* * *

أخلص إلى القول إن أبا الطيب ، هذه المرحلة ، لم ينفض يده من الثورة. فقد كانت في فكره وذاته وحياته ، كانت العقيدة الثابتة ، والمثل الأعلى ، وصورة الوجود الوحيدة.

غير أن المتنبي كان يعيش حياة أقرب إلى التشرد والضياع والتفتيش عن شيء يملأ ذاته ، ولكنه كأنما ينأى عنه كلما اقترب منه. ولعله كان يحس أحياناً أن ما يطمح إليه قد ضاع إلى الأبد ، أو أوشك أن يضيع . ولا يطيق تصديق هذا الواقع ، فيرتد إلى مثله يتغنى بها ، وإلى ماضيه يعوذ به من حاضره ، وإلى سيفه يستظهر به على الاحساس بعقم كل محاولة .

لا بد من الاشارة هنا ، إلى أن أبا الطيب قد استدعى نفراً من رفاق الأمس الخلص ، فعاش معهم عيشة عائلية مشتركة ، يرحل بهم ويقيم ، فإذا هو في حاشية لا تذكره بالماضي فحسب ، وإنما تجعل من حضورها الدائم ، صورة عن ألفة الثوريين ، وشكلاً من أشكال الشراكة الثابتة ، المقيمة على أسس لا تمحوها يد الدهر.

— ٤ —

كان لقاء المتنبي سيف الدولة منعطفاً حاسماً في تاريخه ، بل في تاريخ الاثنين معاً. ولعل أبا الطيب كان يصبو إلى هذا اللقاء ، وإن لم يفصح عنه. كان يعرف كل شيء عن سيف الدولة ، دون ريب. وكان يتوسم فيه كل ما كان يتوسم في ذاته من مطامح. كان يعرف أن سيف الدولة غير من عرف من الأمراء. وأن والد سيف الدولة ، أبا الهيجاء ، أول من اقتحم بغداد ، بعد قيام الدويلات ، وهيمنة الترك على الخلفاء العباسيين ، وعلى مقادير الدولة ، ومقاليد الحكم. وأن أبا الهيجاء أول من أنزح الترك عن بغداد ، وأنقذ الخلافة العباسية من سيطرتهم. ولكن أبا الهيجاء أخطأ خطأه الكبير ، حين أبقى على الخلافة العباسية والخليفة ، فأتاح له أن يتآمر عليه مع الترك ، فيدفع خارج بغداد ، فينسحب مقاتلاً حتى ظاهر الموصل ، حيث جرت معركة الوجود أو الموت ، فقتل أبو الهيجاء ، وأخوه سعيد الدولة والد أبي فراس.

ويعرف أبو الطيب كذلك أن ناصر الدولة ، أمير الموصل ، كان يقود ثورة على العباسيين لا تهدأ ، ينزح عن الموصل ، إذا اشتد ضغط جيوش البويهيين والعباسيين ، فيشن عليهم حرب عصابات ، حتى يجبرهم على التراجع ، فيعود إلى الموصل أميراً ، يرتقب أن تحين الفرصة للانقضاض على بغداد.

وكان أبو الطيب ، يعلم كذلك ، ما ينطوي عليه سيف الدولة من خصال ومطامح. ولكنه كان كذلك يعلم أن البويهيين والعباسيين والروم وكافور الأخشيدي ، يخشونه ، ويدركون مطامحه ، فلا يدعونه يهدأ ، فالروم يهاجمون من الشمال والغرب ، وكافور من الجنوب ، والعباسيون والبويهيون ، من الشرق ، يقتحمون أطراف دويلته ، أو يثيرون عليه القبائل. وسيف الدولة يقاتل على كل جنب ، متحدياً مناضلاً ، متصدياً مجابهاً ، لا تني له عزيمة ، ولا تفتر له إرادة ، ولا يدب إليه خور ، ولا تخامره روح المساومة وطلب السلامة.

لقد أشار المتنبي إلى هذا الوضع الفريد بقوله :

وسوى الروم خلف ظهرك روم

فعلى أي جانبيك تميل

وأعتقد أن أبا الطيب لم يستثن بعضاً من رجال سيف الدولة أنفسهم ، وأبرزهم قرعويه أحد قادة جيشه البارزين. فقد كان المتنبي وأبو فراس— رغم موقف الأخير الشاذ من المتنبي— على خلاف مع قرعويه ، بل كانا يشعران أنه يضمر طمعاً في ملك سيف الدولة ، وأنه مدسوس عليه ، يتحين الفرص للغدر به.

وأعتقد أن قرعويه ، هو من حاول اغتيال المتنبي— مما سيمر ذكره— يوم كان خارجاً من مجلس سيف الدولة ، للخلاص من خصم ينبه إلى خطره ، ويكشف خيانته.

هذه ملاحظات أردت منها الوصول الى حقيقة ثانية ، وهي أن العلاقة بين المتنبي وسيف الدولة ، لم تكن علاقة شاعر بأمير فحسب ! كانت علاقة بين رجلين التقيا على أهداف مشتركة ، ومبادىء واحدة. ولا معنى

للقول إن المتنبي لزم سيف الدولة لكرمه . فقد كان كل أمير مستعداً لعطائه أضعاف ما كان يعطيه سيف الدولة ، خاصة عضد الدولة البويهي .

لقد وجد المتنبي في سيف الدولة ، القائد الحقيقي القادر على تحقيق تحرير الشعب العربي ، والوطن العربي ، من كل هيمنة أجنبية ، وإعادة بناء الدولة العربية على أسس من الحرية والكرامة والتحضر والتطور .

فلئن فقد المتنبي قاعدته الشعبية ، دون أن يفقد خصائص القائد ، فإنه يعلم أن القائد دون القاعدة ، لا يستطيع تحقيق المطامح ، كما أن القاعدة دون قائد تتمثل فيه حاجاتها ومطامحها ، لا تقوى على بلوغ مراميها . ولذلك تبدع القائد من صلبها ، كل مرة تخلو سُدَّته . ولكن ، أيمكن لها أن تبدع القادة المتميزين ، بكل هذه السهولة ؟

إذن ، هذا سيف الدولة ، القائد المتميز ، علماً ، وخصائص ، وقيادة ، وخلقاً ، ومبادىء وغايات ، يملك القدرة ، والسلاح ، والمال ، والرجال ، بل القاعدة الشعبية الواسعة ، التي لم تكن تتمثل في جماهير منطقة حلب فحسب ، وإنما في الجماهير العربية ، المتطلعة إلى قائد يجسد أمانيها ، ويقودها إلى الخلاص مما تعاني من هيمنة الأعاجم ، والخلافة الضعيفة الراضخة للأعجمي ، يتصرف بها كما يشاء ، ويسخرها لمآربه .

لم يكن المتنبي يطمح ، من وجوده لدى سيف الدولة ، إلى أية غاية شخصية فردية . لقد تخلى حتى عن القيادة ، لقائد يتمتع بكل المؤهلات ، قائد يجسد كل أحلام أبي الطيب ، المحددة بخلاص الأمة العربية ، وقيام دولتها الحرة الكريمة المتطورة المبنية على العدل والقوة .

مظاهر العلاقة بين سيف الدولة والمتنبي متعددة الوجوه . ولكنها تنطلق من وجهين أساسيين :

١ــ أن سيف الدولة قائد المسيرة إلى تحقيق مطامح الأمة.

٢ــ أن سيف الدولة يجسد النموذج العربي، نموذجاً يقتدي به أبناء الأمة، ويصبون إلى تمثل صفاته. على أنه النموذج الذي يلخص خصائص الانسان العربي عبر التاريخ. وقد رأينا مثل هذه الصورة في شخص المتنبي من خلال فخره، وفي ملامح نثرها في مدحه. وقلت إن هذه الصورة تتجلى أكثر ما تتجلى، في شخصية سيف الدولة خاصة، من ممدوحي المتنبي، وفي المتنبي نفسه.

لا يغربن عن بالنا أن هذين الوجهين، لا فصام بينهما. فلو لم يكن سيف الدولة، في وعي أبي الطيب، يمثل ذلك النموذج، لما كان قائد المسيرة.

ولا بد من الاشارة إلى أن المتنبي، وقد أسلم القيادة لسيف الدولة، مؤمنا بكفاءته، وقدراته، أوشك أن يضرب صفحاً عن الفخر بنفسه، إلا عند التحدي، وإلا بشعره وعلمه، كما سنوضح ذلك.

ما أوجه العلاقة بين المتنبي وسيف الدولة القائد؟

كان المتنبي الحافز المثابر، يحث سيف الدولة على تحقيق المطمح الأساسي، وهو القضاء على الخلافة، وإقامة دولة عربية حقيقية، على الصورة التي كانت في خيال الاثنين معاً:

فيا عجبا من دائل أنت سيفه
أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام في ما تصيدا

يحرض المتنبي، هنا، سيف الدولة، على القضاء على الدولة العباسية، دون لبس أو غموض. فيقول: أنا أعجب من الخليفة الذي لا يتوقى شفرتي «سيف دولته». ثم يثني على هذا التعجب بتوكيد عزم سيف الدولة على انتزاع الخلافة من العباسيين. فقد «شاء الخليفة أن يصيد أعداءه بأسد مفترس. ومن شأن الأسد أن يصيد الصياد والصيد معاً. أي أن يقضي على الخليفة وأن ينتزع الخلافة».

ولا بد أن نتذكر، هنا، إنذارات المتنبي السابقة، بالقضاء على الخليفة وانتزاع الخلافة، من ذلك قوله:

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى أدلت له من دولة الخدم

وهذا دليل واضح على أن الهدف الذي بدأ ثورته بالسعي إليه، بزغ مجدداً في لقاء سيف الدولة، بعد أن كاد اليأس يتمكن منه.

كان المتنبي ملحاحاً في الحض على تحقيق ذلك المطمح، ولعل هذا من أسباب الفتور أحياناً بين الاثنين. فهذا «الضمير» المحرض، الصافي، الذي يأبى أن يرضخ لحكم الظروف، فيستعجل التنفيذ، وتخطي العقبات التي كان المتنبي يرى أنها ستزداد تعقيداً وتكالباً، فتحول دون بلوغ المرمى، هذا «الضمير» الموقظ، كان سيف الدولة يشعر نحوه أحياناً أنه ينغص عليه لياليه. فالواقع المرّ، والغدر والخيانات، والأعداء الذين لا يدعون له فرصة هدوء، كل ذلك يحرمه التوجه إلى ما رخص النفس له، بينما المتنبي ــ الضمير ملحاح، لا يقر بقدرة الظروف على التحكم بقدر الأمة. ولكن الجفاء الموقت يزول سريعاً، إذ يرى الطرفان أن ثمة من يحاول استغلاله لتعميقه، ويجدان دائماً نقاط التقاء، يتآلفان عليها،

خاصة وأن الهدف الأساسي ، هو الرابط العميق ، الذي يسمو على كل الاعتبارات .

لم تكن تلك العلاقة نظرية فحسب . كانت عملية كذلك . فقد سار المتنبي في ركاب سيف الدولة الى معظم حروبه الرئيسية ، وحارب في جنده . جسد المتنبي المبدأ نضالاً في الدفاع عن الوطن ، وتوطيد دعائمه ، ليكون قادراً ، من بعد ، على الانتقال إلى مرحلة التحرر والبناء الشامل .

وكان في بعض الأحيان ، الخطيب في الجند ، يثير الحمية ، ويحفز على الحرب ، ويوقظ الهمم ، رابطاً دائماً بين معنى القتال — الثورة ، وبين الهدف .

كان الروم ، العام ٣٤٠ للهجرة ، قصدوا غزو الثغور ، فسارع سيف الدولة إلى لقائهم قبل بلوغها ، ومعه المتنبي ، فاحتل بعض مناطق بلاد الروم ، ولما أشرف على سَمَنْدَوَيْهِ ، علم أن الروم قد أعدوا أربعين ألفاً للقائه ، فتهيب جنده الأقدام ، فوقف المتنبي يثير نخوة الجند ، ومما قاله :

وقد علم الروم الشقيون أننا
إذا ما تركنا أرضهم خلفنا عدنا
وأنا إذا ما الموت صرح في الوغى
لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا

لا بد أن نلاحظ هنا ، الشطر الثاني من البيت الثاني ، فالحرب السبيل إلى الغايات المثلى ، وتلك سمة من سمات فكر المتنبي ، **كل عهوده** .

وأقدم الجيش ، فلما بلغ مواقع جيش الروم ، خشي سيف الدولة أن

ينثني الجند، فأسرّ إلى أبي الطيب: «قل لهؤلاء يقولوا كما تقول حتى لا ينثني الجيش». فقال:

فنحن الألى لا نأتلي لك نُصرةً
وأنت الذي لو أنه وحده اغنى
يقيك الردى من يبتغي عندك العلا
ومن قال: لا أرضى من العيش بالأدنى
فلولاك لم تجر الدماء ولا اللهى
ولم يك للدنيا ولا أهلها معنى
وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى
وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

وكان النصر. غير أن من يقرأ هذه الأبيات لا بد أن تستلفته عدة معان. فالقائد، وهو مضرب المثل لجنده: «لو أنه وحده أغنى» ينصره الجند، ولا يدخرون وسعاً في التضحية في سبيل ما يسعى إليه، ويقونه الردى «لأنهم يبتغون العلا عنده، ولا يرضون بأدنى من ذلك». لعلمهم الوثيق أنه الثائر، الذي يعرف أن الثورة حمراء، «فلولاك لم تجر الدماء ولا اللهى»، وأن غاياته ترتقع به الى مستوى خلو الدنيا من معناها، دون وجوده.

ثم ينهي المتنبي خطابه بالمعنى الشامل: «أنت أيها المقاتل مصدر الشجاعة أو الخوف. فإن تكن ثائراً حقيقياً، ينتفِ الخوف، وإلا فأنت جبان بالطبع». لئن جعل القائد نموذجاً وقدوة، فإنه يسمو بالمقاتل إلى مصاف الأبطال، إذ لا يطيق تصور المقاتل إلا ثائراً نموذجياً.

وقد تخطت العلاقة بين الرجلين حدود أن يكون المتنبي ضميراً موقظاً، وجندياً، وخطيباً محرضاً على القتال. فقد كان، في ما أعتقد، مستشاراً، يرجع إليه في كثير من الأمور الخطيرة.

أورد هنا حادثة من أخطر أحداث تاريخ سيف الدولة. وهي استنصار ناصر الدولة، أخيه، به.

ذكرت من قبل أن ناصر الدولة كان أمير الموصل، وكان شوكة في جنب البويهيين والديلم والعباسيين — والعباسيون يومذاك خاضعون للبويهيين، مؤتمرون بأمرهم، فليس لهم من السلطة إلا الاسم —، لذلك كانوا يشنون الغارات على الموصل فيرحل عنها ناصر الدولة، ويستدرجهم، ثم يعمد إلى حرب العصابات، حتى يرهق جيوشهم، فينسحبون، فيلاحقهم إلى ما وراء الموصل.

استنصر ناصر الدولة بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ (٩٤٨م) حين أقبل معز الدولة الديلمي بجيش جرار، يريد احتلال الموصل، والقضاء على دويلة بني حمدان فيها، والخلاص من ناصر الدولة، الأمير العربي الذي ينغص على الفرس عامة أيامهم، ويشكل أكبر الخطر على هيمنتهم على الخلافة.

لا ريب أن القضاء على إمارة بني حمدان في الموصل، كان سيقود إلى القضاء على إمارة بني حمدان في حلب، وبالتالي خلو الساحة كلها من أية إمارة عربية. وليس المهم أن تكون إمارة عربية فحسب. فما أكثر الأمراء العرب، إسماً لا فعلاً، ممن كانوا أتباعاً خانعين لكافور، أو للبويهيين أو الديلم. المهم أن تكون إمارة عربية قولاً وفعلاً، ولم يكن في المشرق العربي كله، بل على كل المساحة التابعة للخلافة العباسية — إسماً على الأقل —،

غير الإمارتين الحمدانيتين ، خالصتين من التبعية . بل لم يكن غيرهما يصبو إلى تحرير العرب من الهيمنة الأعجمية ، وبناء دولتهم المثلى . لذلك تكاثفت كل القوى — على ما بينها من خلافات أحياناً — على ضرب الإمارتين الحمدانيتين ، والحيلولة دون تحقيق مطمحها .

هل تردد سيف الدولة في نصرة أخيه؟ من يرجع إلى العام ٣٣٧ هـ ، يجده مليئاً بالأحداث ، التي لم تدع لسيف الدولة ساعة من راحة . فقد احتل الروم حصن برزويه ، فسار إليه ، واستعاده بعد أن انتصر على الروم . وما كاد يبلغ حلب ، حتى توفيت والدته ، وكانت خير ساعد له ، تقوم مقامه في الحكم إذا غاب عن حلب . ولهذا قال فيها أبو الطيب :

ولو كان النساء كمن فقدنا
لفضلت النساء على الرجال

وفي هذه السنة يعتقل الخوارج ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود ، وواليه على حمص . فيسير إليهم سيف الدولة ، وينقذ ابن عمه ويبيدهم جميعاً ...

وكان الروم قد كبسوا انطاكية ، كما ذكرت سابقاً ، ولكن أبا العشائر الحمداني ، ابن عم سيف الدولة ، انتصر عليهم قبل وصول سيف الدولة . وقد اشترك أبو الطيب في المعركة .

الواقع أن خطة الروم والبويهيين ، والأخشيديين ، كانت إشغال سيف الدولة بمعارك لا تهدأ ، فلا يقرّ له قرار ، ولا يكاد يبلغ حلب حتى يسير عنها إلى معركة جديدة . ولا ننسى أنه لم يكن قد ملك حلب إلا قبل أربع سنوات ، وذلك حين انتزعها من أحمد بن سعيد الكلابي سنة ٣٣٣ للهجرة .

من المؤسف أن التاريخ قلما يوضح بعض الأحداث ، وإنما يمر بها مرور الكرام ، فلا يذكرها إلا ذكراً عابراً . فهو لم يكشف عن موقف سيف الدولة حين جاءه كتاب أخيه ناصر الدولة يستنصره على معز الدولة الديلمي . ولكن في قصيدة المتنبي — الذي كان حديث العهد في ديوان سيف الدولة — ما يوحي أن الأمير الحمداني ، لم يلبِّ الدعوة فوراً ، أو أنه كان في حيرة من أمره ، فأعداؤه يشغبون عليه من كل صوب ، ومسيره عن حلب قد يعرضها للخطر.

يبدأ المتنبي القصيدة بهذين البيتين :

أعلى الممالك ما يبني على الأسل
والطعن عند محبيهن كالقبل
وما تقر سيوف في ممالكها
حتى تُقَلقَلَ دهراً قبلُ في القُلَلِ

إنه يواجه سيف الدولة بأسمى فكرة ، يمكن أن تخطر لقائد طموح ، ويشحن الموقف بأقصى ما تحتمله الأعصاب ، فالملك إما أن يبنى بالحرب ، وإما أن لا يكون ملك إطلاقاً ، والسيوف إنما خلقت لتجزّ الرؤوس.

ثم يقول :

تتلو أسنته الكُتُبَ التي نَفَذَتْ
ويجعل الخيل أبدالاً من الرسل

وهذا حض واضح على المسير إلى نصرة ناصر الدولة ، وإن جاء على

صورة مديح ، ولكن الأبيات الأخيرة ، تشف بوضوح ، عن حيرة سيف الدولة من جهة ، وعن إلحاح المتنبي على المسير إلى الموصل :

إن السعادة في ما أنت فاعله
وفِّقت مرتحلاً أو غير مرتحل
أجرِ الجياد على ما كنت مجريَها
وخذ بنفسك في أخلاقك الأول

فقوله : «وخذ بنفسك في أخلاقك الأول» لا يدع مجالاً للشك ، في أن الشاعر يواجه سيف الدولة ، بأمر لا يطيق له دفعاً : «لا تتنكر يا سيف الدولة لما عرف عنك من خلق الحرب. وانهض لنصرة أخيك».

لكأن المتنبي ، شاء من البيت الأول : «إن السعادة ...» ألا يحرج سيف الدولة ، فقدم له عذراً ، لو شاء أن يعتذر ، فقال : «السعادة في ما تفعل ، سواء نهضت إلى مساندة أخيك أم لم تنهض». وما ذاك إلا من باب اللياقة. ولكنه في البيت الثاني ، جرّده من القدرة على ذلك العذر ، إذ جعل أخلاقه ترفض التخلف عن المسير إلى نصرة أخيه.

لا ريب أن سيف الدولة كان قد صارح المتنبي بما يخامره ، وما يشغله من الإحساس بالخطر على حلب. فكان ردّ المتنبي حاسماً ، وإن توسل إليه بما يطيق من لباقة ، وعدم إحراج.

على أن إلحاح المتنبي كان متصلاً بأمر آخر ، كان يضمره من وراء تلك النصرة ، ولقاء الأخوين. ولا بدّ هنا من أن أعمد إلى التحليل والتفسير ، إذ لا سبيل إلى أن أرجو الحقيقة من كتب التاريخ. فكل ما تسوقه أن سيف الدولة سار إلى الموصل ، وانتصر الأخوان على معز الدولة انتصاراً

ساحقاً. بل كثيراً ما تكتفي بالقول إن سيف الدولة سار إلى الموصل لنصرة أخيه.

أعتقد أن المتنبي كان يعوِّل على لقاء الأخوين، في توحيد الإمارتين لتكونا منطلقاً إلى تحقيق الحلم الأكبر. ولكن! ما الذي حدث بعد اللقاء؟ هل جرى الحوار حول توحيد الإمارتين؟

لقد رافق المتنبي سيف الدولة، وحارب إلى جانبه. ولا ريب أنه اجتمع إلى الأخوين معاً. فهل طرح عليهما فكرة الوحدة؟ بل هل يمكن ألا تكون الفكرة خطرت للأميرين الحمدانيين؟

ما يلفت النظر أن المتنبي، سأل سيف الدولة الإذن بالعودة وحده إلى حلب، محتجاً بالعيال، وحاجتهم إليه. وهو أمر لم يحدث إلا تلك المرة، على كثرة المرات التي رافق فيها المتنبي سيف الدولة إلى الحروب، أو إلى رحلات خاصة. فهل كان العذر بالعيال صحيحاً؟

نعرف أن المتنبي كان يعيش في حاشية كبيرة من صحبه الأوائل، ممن شاركه مرحلة الدعوة إلى الثورة، فأي قلق هذا الذي يشعره عليهم:

إن الذي خلفت خلفي ضائع
ما لي على قلقي إليه خيار

أعتقد أنه عذرٌ واهٍ. وأنه ليس إلا تبريراً لرغبته في الرحيل، عن الموصل، وقد فشل في ما انتدب نفسه له، وفي ما عوَّل عليه من لقاء الأخوين.

لا أحب أن أستكثر على أبي الطيب محاولته عرض فكرة الوحدة على الأخوين. بل إني مصرّ على أنه عرضها، وفشل في بلوغ ما أراد. أما

أعذار الأخوين ، على تشابه شخصيتيهما، ومطامحهما وأهدافهما ، فأمر غير واضح . ولعله أشبه بالأعذار التي تعترض قيام الوحدة بين أقطار عربية ، يفترض أن السلطات فيها متماثلة المواقف ، ربما ، مع فارق أساسي ، هو أن سيف الدولة وناصر الدولة ، كانا نموذجين نادرين .

ولكن ، هل ييأس أبو الطيب؟ هل يخيب أمله في سيف الدولة؟ لو كان ذلك لرحل عنه ، ولما بقي لديه تسع سنوات ، لم ينهض فيها الأمير العربي إلى حرب ، إلا كان الفارس العربي ، إلى جانبه ، مناضلاً مقاتلاً ، مدافعاً عن حياض الوطن ، أو مقتحماً على الأعداء حصونهم وديارهم . يكفي أن أضرب مثلاً ، عدداً من الحروب التي خاضها إلى جانب سيف الدولة في أقل من ثلاث سنوات : معركة سمندويه— معركة الموصل— معركة مرعش— صحبة سيف الدولة لما سار لحرب الأخشيد ولكن الأخشيد انسحب قبل المعركة— معركة آلس وطرسوس— معركة السنبوس ، معركة سمندو ثانية وقد كسر سيف الدولة فيها لتخاذل أعوانه ، وكاد الروم يأسرونه .

هذا في سنوات ثلاث . ولا حاجة إلى ذكر معارك كثيرة خاضها أبو الطيب ، لعل أشهرها معركة قلعة الحدث ، ومعركة سمندو .

أحب هنا أن أتوقف عند هاتين المعركتين ، اللتين انكسر في إحداهما شر كسرة ، وانتصر في إحداهما أعظم انتصار ، لنستكشف موقف المتنبي في الحالين ، ونظرته إلى سيف الدولة ، وعمق إيمانه به ، منكسراً أو منتصراً ، مما يؤكد أن أمله فيه لم يخب يوماً ، بل كان يزداد اقتناعاً أنه القائد الوحيد ، في تلك الحقبة ، الجدير بتحقيق المطامح الكبرى .

كان سيف الدولة قد سار للقاء الروم ، فاجتاز «سمندو» ، وعبر نهر

«آلس» في أرض الروم، ودمّر مدينة «صارخة»، ثم عاد فاجتاز آلس، وقصد «خرشنة»، فاجتازها إلى «بطن لقان»، فإذا الدمستق قائد الروم في ألوف من الرجال — وكان سيف الدولة قد خلّف معظم جيشه — فالتقى الجيشان وكان النصر لسيف الدولة، فقتل وأسر العديد من جيش العدو وقادته. ورجع يقصد مجتمع جيشه، فإذا العدو قد قطع عليه «عقبة الأثغار»، فراح يحمي ساقة قوته الصغيرة، فإذا العدو يفاجئهم من خلفهم، فاتجه سيف الدولة صوب طرسوس، فوجد العدو قد قطع عليه عقبة طويلة بين الجبال، فعرج على طريق جانبية، ولكن العدو أدركه، فجرت معركة شديدة، استمرت حتى العشاء، فسار في سند الجبل، حتى بلغ مجتمع جيشه عند بحيرة قرب الحدث، فإذا العدو قد أخذ سفحي الجبلين من حوله، فنفّر جيشه، فلم ينفر، بل كان من نجا من معركة النهار، قد ولى الأدبار، فاضطر سيف الدولة إلى القتال متراجعاً، وكان أبو الطيب إلى جانبه يقاتل، ويدافع عن البقية الباقية من الجيش، ويستبسل دفاعاً عن سيف الدولة. ومما هاله خلال التراجع، أنه رأى بين القتلى أُناساً تظاهروا بأنهم قتلى، حماية لأنفسهم. ورأى جند الروم يحركون هؤلاء، فمن شعروا أنه لم يمت قتلوه أو أسروه.

ما كانت نظرة أبي الطيب إلى سيف الدولة، وقد شهده يكسر، وحارب إلى جانبه، حتى اللحظة الأخيرة؟

ليس الانكسار عيباً في وعي المتنبي. العيب ألا تقاتل حتى الرمق الأخير. والسلامة غير مطلوبة لذاتها، فقديماً قال:

وأشجع مني كل يوم سلامتي
وما ثبتتْ إلا وفي نفسها أمر

وقد قاتل سيف الدولة حتى لا سبيل إلى قتال. قاتل وقد انفض عنه معظم جيشه، إلا قلة بينها أبو الطيب، أبت إلا أن تقضي في المعركة، فإذا سلمت فلأن العدو لم يستطع القضاء عليها.

كان سيف الدولة في نظر أبي الطيب، نموذج البطل. كان في تراجعه، بل انكساره، مثلاً أعلى في الحفاظ على جنده، وفي القتال المستميت دفاعاً عن الأرض والكرامة. في وقت خذله فيه معظم جنده، بل معظم قادته. فمن كان أولئك القادة؟ هل كان قرعويه بينهم؟ لم يذكره المتنبي يوماً في شعره، لا مدحاً ولا ذماً. ولكن، أكان يقصد الجند فحسب في قوله:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع
إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا
أهل الحفيظة إلا أن تجربهم
وفي التجارب بعد الغي ما يزع

لا ريب أن بعض قادة سيف الدولة كانوا دون ما أمّل فيهم، سواء كان فيهم قرعويه أو لم يكن! ولهذا نعتهم أبو الطيب برجال الكلام لا القتال. ولهذا لام سيف الدولة تلميحاً وتلويحاً: «غيري بأكثر هذا الناس ينخدع». وكأنما يقول له: لقد آن الأوان يا سيف الدولة، وأنت الحصيف، أن تميز بين المقاتل الحقيقي، وبين من يفتنك بالكلام عن شجاعته.

ثم كأن الشاعر يضع قوانين لاختيار الرجال، ومنها رفض حياة لا تشتهى، لأن الرضى بها ذلّ ولؤم، وعدم الانخداع بجمال الوجه أو اللفظ، فالرجل الرجل، من يقضي دون كرامته. وأهم من هذا وذاك،

أن المجد لا ينال إلا بالقوة. والقوة هي الكفاح الأبدي. وما أشبه هذا بالفكرة الثورية اليوم: «الثورة مستمرة — أو إما أن تكون الثورة دائمة أو لا تكون».

أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه
وأترك الغيث في غمدي وأنتجع؟

والثائر متوحد في المواقف الحاسمة، ولكنه لا يغضب ولا يقلق، لأنه يعلم أنه وحيد في المواقف الحاسمة. مع ذلك، يمتنع به أعوانه، بينما يمتنع بهم غيره من القادة:

بالجيش تمتنع السادات كلهم
والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع

يعرض المتنبي بعد ذاك لما قام به سيف الدولة، مركزاً على تفرده في خصائص القتال، والكفاح المستميت، مشدداً على انتصاراته، وكأنما يعزي سيف الدولة على انكساره: «فإن تراجعت فقد أذللت الروم مراراً وقتلت بطارقتهم وأسرت قادتهم وشرّدت جيوشهم»، وينذر الروم: «لا تشمتوا ولا تفرحوا، فإن تراجع سيف الدولة مرة، فإنكم تعرفون ما أحاق بكم على يده مراراً، فخرشنة، وآلس، وطرسوس، والدروب جميعاً تشهد بما فعله بكم».

أما من قتلهم الروم، ومن أسروهم، فلم يكونوا إلا «جثثاً» بالية، لا مطمع فيها، فمن خان سيف الدولة، كان أجدر بأن يموت. بل هو الضعيف الذي تعف عنه السيوف، والجثة التي لا يقربها إلا الضبع:

ضعفَى تعف الأيادي عن مثالهم
من الأعادي وإن هموا بهم نزعوا

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق
فليس يأكل إلا الميتة الضبع

وفي تشديده على عذر سيف الدولة وتعزيته ، يقارن بين موقفه المثالي ، وموقف الضعفاء من قادته وجنده ، فإذا هو يبدع المواقف ، لأنه سيد قدره ، وإذا الآخرون عاجزون عن بلوغ ما سما إليه . ولا يثنيه أن يقصر الآخرون ، في وقت كان فيه النموذج العجيب :

تمشي الكرام على آثار غيرهم
وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع
وهل يشينك وقت كنت فارسه
وكان غيرك فيه العاجز الضرع

وكان المتنبي صادقا . يعرض واقعاً ، ولا يختلقه . ولكنه يعرف كيف يختزل هذا الواقع ، ويبرز ما يكتنز به في اللحظات الحاسمة ، من معاني العظمة والبطولة . ليس المتنبي هنا مادحاً ، إنه مشارك في الفعل ، والهدف ، والنصر والهزيمة . يصيبه ما أصاب سيف الدولة من خزلان ، لأنه خذلان الأمة لا خذلان الفرد . ويعتريه الزهو للبطولة والتضحية ، لأنها تجسيد فضائل الأمة ، لا تجسيد فضائل الفرد . مع العلم أن النموذج واضح ، لم تبدل منه الهزيمة ، بل أبرزت خصائصه ، فهو واحد في حالي النصر والهزيمة ، يتفوق دائماً على الحدث ، ويرتفع عن حدود الزمان والمكان ، معتلناً قيماً وفضائل ، تلخص دائماً النموذج العربي الأصيل خلال التاريخ .

القصيدة الثانية ، هي التي نظمها أبو الطيب ، في معركة قلعة الحدث .

كان الروم قد احتلوا الحدَث ودمروا قلعتها. والحدث ثغر من الثغور الرئيسية، التي كان يعول عليها في حماية البلاد من هجمات الروم. واحتلالها يهدد مباشرة حلب، مقر سيف الدولة وعاصمته، وبالتالي الأرض العربية كلها، ويفتح الطريق أمام الروم، إلى بغداد نفسها عاصمة الخلافة.

كان موقف سيف الدولة شديد الحرج. في العام ٣٤٣هـ، أرهقته وجيشه الأحداث فضاعفت رهق السنوات السابقة التي لم يهدأ فيها لحظة، هو وجيشه.

واجه أحد أمرين: أن ينتظر في حلب قدوم الروم، فيتعرض ويعرض بلاده للخطر. أو أن يسير إلى الحدث، بمن يتوفر لديه من الرجال. وليس الاختيار الثاني أقل خطراً، فانكساره في الحدث، وهو المهاجم، يقود إلى الكارثة حتماً. بل لعل الاختيار الأول أقل خطراً، فالتحصن في حلب، والدفاع عنها ضد الغزاة الروم أهون خطراً، خاصة أنه لم يتجمع لسيف الدولة إلا خمسة آلاف مقاتل، بينما كان جيش الروم في الحدث خمسين ألفاً[1].

مع ذلك فضل الاختيار الثاني، ذاهباً مذهب «خير وسائل الدفاع الهجوم». كان المتنبي واحداً من جند سيف الدولة في المعركة، فإذا هو الشاهد والمقاتل.

---

(١) يجمع المؤرخون على هذين الرقمين. ولكن بعضهم ذكر أن جيش سيف الدولة خمسمائة مقاتل. وسبب هذا الخطأ. سوء فهم جملة وردت في أخبار المعركة. تقول: «وحمل عليهم سيف الدولة في خمسمائة مقاتل». والقصد أنه حمل بهذا القسم من رجاله على جناح جيش العدو. لا بكل رجاله.

حمل الأمير معه البنائين، وقد صمم على النصر أو الاستشهاد... كان جيش الروم ينتظره، والفارق بين الجيشين كبير، فلم يتراجع. بل أمر البنائين ببدء البناء، وأقبل على الروم لقتالهم، وقد وضع خطة تشبه خطة خالد بن الوليد في معركة اليرموك، إذ قسم جيشه إلى مقدمة وساقة وجناحين. وجعل القلب يتراجع أمام ضغط الروم، ثم أمر الجناحين بالالتفاف حول جيش الروم، يقود جناحاً، وبعض قادته الجناح الآخر، وحمل الجناحان بكل ما يطيقان من عنف، ففوجىء جيش الروم بهذه الكلابة الضاغطة، فتراجع مقاتلوه من الجناحين إلى القلب، فاختلط «الحابل بالنابل»، وتخلخل النظام، ودب الذعر في قلوب الرجال، وطلب كل منهم النجاة بنفسه، يدوس بعضهم على جثث بعض.

أسر سيف الدولة في هذه المعركة ستة آلاف رومي، عدا القتلى والجرحى، وبينهم قائد الجيش. وارتفع بناء القلعة حتى اكتمل، واضطر قيصر الروم إلى إرسال وفد إلى سيف الدولة يفاوض على الهدنة وتبادل الأسرى. يذكر المتنبي ذلك في قصيدة مطلعها:

أراع كذا كل الأنام همام
وسحّ له رسل الملوك غمام

والآن، ما هي صورة سيف الدولة في قصيدة «قلعة الحدث»؟ ما يعنيني الوجه الثوري من الصورة. وهو وجه لن تجد له مثيلاً في شعر أو نثر. ولا بد أن أشدد على أمر، وهو أن المتنبي شاهد يصف واقعاً، ولكنه يسمو بهذا الواقع إلى مرتبة النموذج، لحرصه على تقديم القدوة لكل عربي، يحضه على الاقتداء بها، والأخذ ببعض فضائلها إن لم يطق الأخذ بها كلها.

وإذا قلت إن الشاعر كان يرتفع بالواقع إلى مرتبة النموذج شعرياً ، فلا أنكر أن ما شهده في الحدث ، نموذج بحد ذاته ، لا يطيق نقله الشعر مهما سما ، مع أن المتنبي في القصيدة ، بلغ الذروة.

يتميز الثوري بعزيمة صادقة ، تهون دونها الصعاب ، وقد أرسل المتنبي صورة تلك العزيمة ، ببيتي حكمة ، صارا قانوناً ثورياً ثابتاً ، مع العلم أنهما لخصا كل تجربة معركة الحدث ، وبطولة سيف الدولة ، وإقدام رجاله ، فقد تجاوزا كل حدث ، وكل واقعة ، وحدود الزمان والمكان والأفراد :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

ولكن العزيمة الصادقة ، ليست أمراً مجرداً ، ولا هي مجرد خلق أو طبع ، إنما يحزم الثوري على أمور جسام ، يعمد إلى تحقيقها بالسبل الثورية ، وفي رأسها القتال . والأمور الجسام ، هي القضايا الكبرى ، وفي رأسها قضايا الأمة . ولذلك يدرك أن بلوغها يوشك أن يكون مستحيلاً ، ولكنه يقدم لإيمانه المطلق بما يسعى إليه ، ولثقته الكبرى بإرادته .

يكلف سيف الدولة الجيش همّه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم .

والثوري ، كل ثوري ، يتميز بيقين ثابت ، هو أنه يحمل عبء الأمة على عاتقه ، وأن كل فرد في الأمة على شاكلته ، أو يجب أن يكون على شاكلته . إنه يرفض منطق العجز والتراخي ، ويشدد على منطق القوة :

ويطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلك ما لا تدعيه الضراغم.

والعنف ظاهرة طبيعية في الثوري ، فإذا تجرّد لقتال ، كان في وعيه أن القتال لا بد أن يكون دموياً :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت
ومن جثث القتلى عليها تمائم

تجدر الاشارة هنا إلى مذهب المتنبي نفسه في الوصف ، إذ يختار قمم المشهد ، واللقطات الأساسية ، التي تبرز العنف ، في حده الأقصى . وما ذاك نوعاً من المبالغة ، كما حلا لبعضهم أن يفهم ، وإنما لأن المتنبي يؤمن بهذا العنف ، ويبشر به — لذلك كان دائماً مبدعاً في صوره. فإذا استعرضنا صور العنف والدم والقتلى ، كانت الطابع المميز في القصيدة. من مثل ذلك :

فلله وقت ذوّب الغش ناره
فلم يبق إلا صارم أو ضُبارم

تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا
وفر من الفرسان من لا يصادم

وقوله يصف موقف سيف الدولة البطولي، وفرحه الكبير بمظهر العنف:

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقوله في العلاقة بين عظمة المطلب، وسبيل الثائر إليه:

ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الرقاق الصوارم

ولا بد أن نلاحظ أن الجمال نفسه، يتخذ له موضوعاً ومعنى جديدين في وعي المتنبي، وبالتالي في وعي الثوري. فمنظر القتلى وقد نثروا على منحدرات الحدث، يتوهج بجمال لا يرقى إليه جمال آخر:

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة
كما نثرت فوق العروس الدراهم

هذا، وفي القصيدة الكثير من معاني الاقدام والشجاعة، والتفرد بالخصائص، وعمق الايمان، والطموح، وبعد الغاية.

أعود لأقول، إن المتنبي شهد سيف الدولة منكسراً ومنتصراً. وشاركه الهزيمة والنصر، ولكن المضمون الثوري واحد، في القصيدتين،

واللوحتين اللتين رسمها لسيف الدولة ، وفي تصور الشاعر معاني البطولة ، واتصال هذه البطولة بقضايا الامة الجسام.

ولعل مما يجب التنبيه إليه ، أن المتنبي ، على إيمانه بالعنف والقوة ، يعتبرهما سبيلاً إلى تحقيق الغايات النبيلة ، بل السبيل الوحيدة. ولكنه يرفض أن يكونا غاية بحد ذاتها. ولهذا لن تجد في أية قصيدة من قصائده ، صوراً للعنف ، إلا مرتبطة بهدف عظيم.

* * *

قلت إن أبا الطيب اختار سيف الدولة قائداً ، واختار لنفسه أن يكون جندياً من جنوده ، يقاتل في سبيل الهدف الكبير ، وما المعارك التي كان يخوضها إلى جانبه ، إلا الطريق إلى ذلك الهدف ، فهي جزء من مراحل النضال ، يتوجها بلوغ الغاية . على أن أبا الطيب ، كما قلت من قبل ، كان الضمير ، والمستشار كذلك . يحقق هاتين الوظيفتين بشعره أو برأيه . وكثيراً ما كان يعبر عن الرأي بالشعر . وكأنه حين وضع معادلة السيف والقلم في قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة
بلغت من العلياء كل مكان

كأنه أشار إلى موقعه من سيف الدولة ، وموقع سيف الدولة منه ، دون أن نتجاهل أنه ، في الأصل ، قصد سيف الدولة بقوله هذا ، فقد اجتمع فيه الرأي والشجاعة ، والنفس الحرة. ولا بد من التنبيه ، هنا ، إلى أن

الرأي والشجاعة ، لا يستكمل بهما المرء بطولته ، بل لا يكادان يعنيان شيئاً ،إن لم يجتمعا في نفس حرة. والنفس الحرة ، هي نفس الثوري. والمتنبي يميز بين نوعين من النفوس : نفوس الأحرار ونفوس العبيد. والحر هو الثائر ، لا غير المستعبد أو غير المستعمر فحسب. أما العبد فهو كل مخلوق غير ثوري ، لا المستعبد أو المستعمر فحسب. وقد أشرت إلى هذا المعنى في أكثر من بيت ، أذكر منها قوله :

وحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التُّقى

وحبُّ الشجاعِ النفسَ أورده الحربا

وقوله :

يرى الجبناء أن العجز عضل

وتلك مشيئة الطبع اللئيم

إذن ، إذا صحت معادلة المتنبي : السيف والقلم ، كان سيف الدولة السيف (القوة) والمتنبي القلم (الرأي). دون أن نغمط رجاحة عقل الأول ورأيه ، وشجاعة الثاني واشتراكه في النضال.

والواقع ، أن المتنبي خلال إقامته لدى سيف الدولة ، قلما أشار إلى شجاعته إلا في حال التحدي. كحاله في قصيدة العتاب : «واحر قلباه ممن قلبه شبم». كان يكتفي بين الحين والحين بالفخر بشعره. مع أنه في معظم قصائده الكبرى في سيف الدولة ، لم يذكر حتى شعره. وقد يذكر بطولته نادراً من خلال الثناء على كرم سيف الدولة.

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه

فإنك معطيه وإني ناظم

وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى
فلا أنا مذموم ولا أنت نادم
على كل طيار إليها برجله
إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

واضح أن المتنبي ، يثني على سيف الدولة لعطاياه ، ولكن العطايا هنا خيل ، يسرع عليها أبو الطيب إلى القتال ، كلما سمع بنبأ معركة ، فلا يندم سيف الدولة على ما أعطى .

مثل هذه الاشارة إلى شجاعته ، نادرة في شعر المتنبي في سيف الدولة . ولكنه أشار أكثر من مرة إلى فنه ، وعظمة شعره . فلئن قال يوماً :

وفؤادي من الملوك وإن كا
ن لساني يرى من الشعراء

فقد كان مؤمناً بشعره ، وعظمته وخلوده :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

* * *

والآن ، ما هي صورة النموذج الذي جسده أبو الطيب ، من خلال سيف الدولة ؟

لا حاجة بي إلى القول إن المتنبي لم يتصور سيف الدولة إلا ثائراً عربياً . والأدلة على ذلك كثيرة :

رفعت بك العرب العماد وصيرت
قمم الملوك مواقد النيران
أنسابُ فخرهم إليك وإنما
أنساب أصلهم إلى عدنان

وفي مكان آخر:

تَشَرَّفُ عدنان به لا ربيعة
وتفتخر الدنيا به لا العواصم[1]

وفي مكان آخر:

إذا العرب العرباء رازت نفوسها
فأنت فتاها والمليك الحُلاحِلُ
أطاعتك في أرواحها وتصرفت
بأمرك والتفت عليك القبائل

وفي مكان آخر:

تفرّد العرب في الدنيا بمحتده
وشارك العربَ في احسانه العجم

---

(١) كانت كلمة العواصم تطلق على المنطقة التي مركزها انطاكية.

وفي مكان آخر :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد
فكيف إذا كانت نزارية عربا

وإذا تصور المتنبي سيف الدولة ثائراً عربياً ، فللعلاقة الوطيدة ، في وعيه ، بين الثورة والقضايا العربية . وهذا واضح في قوله : «رفعت بك العرب العماد» فهو الذي يقود مسيرتها إلى بناء مجدها ، وهو نموذجها الثوري : «فأنت فتاها». ولذلك تقاتل تحت إمرته ، وتلتف القبائل حوله ، وتضحي بأرواحها في ما يقودها إليه . وإذا جعله أبو الطيب فخر العرب ، فما ذلك عن مبالغة في القول ، وإنما لأنه يمثل تلك المكانة في نظر العرب ، ولأنه بلغ من صدق إيمانه بقضايا العرب ما جعلهم يقبلون على الموت إقبال من يؤمن أن الاستشهاد طريق سلامة الأمة :

ضربته بصدور الخيل حاملة
قوماً إذا تلفوا قدماً فقد سلموا

لقد كان المتنبي يعتقد جازماً أن سيف الدولة هو الذي يحمي الأرض العربية من اجتياح الروم ، إلى ما كان يطمح إليه من تحرير العرب من كل سلطة أعجمية ، فهذا هو يخاطبه بعد تركه حلب بسنوات :

كيف لا تأمن العراق ومصر
وسرايـــــــــاك دونها والخيولُ
لو تحرّفت عن طريق الأعادي
ربط السِّدرُ خيلَهم والنخيلُ

ويعرض في الوقت ذاته بكافور وآل بويه ، الذين حماهم سيف

الدولة ، ودفع عنهم أذى أعدائهم ، فلولاه لكانوا الأذلاء الحقراء. غير أنهم يتآمرون عليه ، ويكيدون له.

ودرى من أعـزّه الدفع عنه
فيها أنــه الحقير الــذلــيــل

أنت طـول الحيـاة للـروم غـاز
فمتى الـوعـد أن يـكـون القفول

وسوى الـروم خلف ظهرك روم
فــعلى أي جانبيــك تميــل

إذن ، في رأس صفات سيف الدولة الثورية ، أنه ثائر عربي ، غاية ثورته تحرير العرب والقضاء على أعدائهم في الخارج والداخل ، ثم بناء دولتهم على أسس من العدل ، تميز سيف الدولة في تحقيقه ، حتى بينه وبين أبسط جنده ورعاياه. على أن للثوري الذي يتطلع إلى مثل تلك المطامح ، خصائص نموذجية ، لا يكون ثائراً دونها ، ولا تكون ذات قيمة ، إن كانت في امرىء لا يتطلع إلى تلك المطامح. وأول تلك الخصائص الخلق النبيل.

لا بد هنا ، من توضيح. فقد يطرح السؤال التالي : «وما الخلق النبيل؟» أقدم لذلك بتوضيح آخر ، أشرت إليه من قبل. يرى الكثيرون أن الخلق ، مجموعة طبائع (أخلاق) منها الطيبة ، وحسن المعشر ، والبعد عن المشاكل ، وعدم التدخل في شؤون الغير ، وما إلى ذلك ، مما يمكن وصفه بالتقية ، وهي أكره ما يكره المتنبي ، لقناعته أن من كان على مثل أخلاق التقية هذه ، كان جباناً ، بل كان لؤم طبعه ، يزين له أن خلق التقية حميد. فهو لجبنه ، شديد الحذر ، معتكف على ذاته ، متجنب

الناس ومشاغلهم ، زاعم أنه لا تعنيه مشاكل مجتمعه ، لأن من يعنى بذلك ، يستجلب على نفسه الأذى :

يرى الجبناء أن العجز عقل
وتلك مشيئة الطبع اللئيم[1]

إذن ليس ذلك ما عناه أبو الطيب بالخلق. وأعتقد أنه عنى به الأصالة . والأصالة تعبير عن روح الثورة المتأصلة في النفس ، فإذا هي الحافز على كل الفضائل ، المتجلية في أفعال عظيمة . وهذا المعنى يردنا إلى الربط بين تلك الروح ، وبين النضال من أجل قضايا الأمة . يقول في سيف الدولة ، بعد أن خبره في السلم والحرب :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم
وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

إذن هو أحسن الخلق ، ولكن أحسن ما فيه شيمه وفضائله ، أي ذلك الطبع الأصيل الحافز على كل مطمح عظيم :

قعد الناس كلهم عن مساعيـ
ـك وقامت بها القنا والنصول

والمسعى كل قضية كبرى ، لذلك يتهيب الآخرون الطموح إليها ، أو الإقدام عليها ، أما سيف الدولة فيحققها بالسيوف والرماح ، أي بالقوة ،

(١) وردت في بعض النسخ : وتلك «خديعة» الطبع اللئيم.

فتلك سبيل الثائر إلى غاياته وأهدافه. والربط، هنا، بين القضية والثورة، بينها وبين النضال، أي بينها وبين القوة، شديد الوضوح.

والقضية، في وعي أبي الطيب، هي دائماً قضية الأمة، وتحررها، وبناء دولتها، وليس عبثاً أن يثير الشاعر دائماً مسألة القضاء على الخلافة، في سبيل تحقيق تلك الغاية:

فيا عجباً من دائل أنت سيفه
أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام في ما تصيدا

على أن من يتنطح للقيادة، ويطمح إلى تحقيق تلك الأهداف، لا بدّ أن يستند إلى شعب يؤمن به. ولا يؤمن الشعب بقائد إلا إذا كان يحيا للشعب وفي سبيله:

كلٌّ يريد رجاله لحياته
يا من يريد حياته لرجاله

وهو نموذج للنضال المستمر، لا يكل ولا يهدأ، لقناعته أن الطريق شاقة وطويلة، إلى أهداف لا تنال بالقعود والراحة:

كل السيوف إذا طال الضراب بها
يمسها غير سيف الدولة السأم

فإذا كلَّ الرجال، وأرهقت الخيل، حملته همته إلى قتال أعدائه، والتغلب على كل العقبات:

لو كلّت الخيل حتى لا تَحَمَّلُهُ
تحمـلـتـه إلى أعـدائـه الهمـم

وهو ذو إرادة صلبة ، فإذا قال فعل ، لأن الكلمة لديه فعل :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

والحرب وسفك الدماء سبيله إلى تحقيق ما تصبو إليه نفسه ، لأن الأهداف العظيمة لا تنال بالقعود :

وأنت المرءِ تمرضــه الحشايـا
لهمـتــه وتشـفـيـه الحروب

بل كاد يعتبر بلوغ الغاية وموت أعدائه على غير يديه ، خيانة لخلقه :

يـغـمُّ عـلـياً أن يموت عـدوّه
إذا لم تـغـلْـه بـالأسنـة غـولُ
شريك المنايا والنفوس غنيمة
فـكـل ممات لم يُـمِـتْهُ غـلـول

ولا معنى لظفر ، إن لم يكن بالسيف ، فإنما تنال الغايات المثلى بسفك الدماء :

أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم

أما صور سفك الدماء ، والقتل والفتك ، في حياة سيف الدولة ، من خلال شعر المتنبي فكثيرة جداً ، منها :

تـريق سيوفـه مـهج الأعادي
وكـــل دم أراقـــتـــه جُـــبَّـار

* * *

أيا رامياً يصمي فؤاد مرامه
تـربي عـداه ريشـهـا لسهامـه

* * *

نثرتهـــم فـوق الأحـــيــدب نثرة
كما نثرت فوق العروس الدراهم

* * *

وظُبى تعرف الحرام من الحلّ
فـقــد أفـنـت الـدمـاء حلالا

* * *

ما زلت تضربهم دراكاً في الذرى
ضرباً كـأنّ السيـف فـيـه اثنان

خصَّ الجماجـم والـوجـوه كـأنما
جاءت إليك جسـومـهـم بأمان

* * *

فـكـان أثبت ما فيهم جسومهم
يسـقـطـن حـولك والأرواح تنهزم

* * *

فتركتهم خلل البيوت كأنما
غضبت رؤوسهم على الأجسام
أحجار ناس فوق أرض من دم
ونجوم بيْضٍ في سماء قتام

* * *

هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم

* * *

بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللبات والنصر قادم

هذه الصور ، وما إليها من هدم وإحراق ودمار ، تلازم نضال من يؤمن بالثورة ، والحرب العاصفة في سبيل الأهداف. ولئن كثرت في شعر المتنبي ، فقد كانت واقعاً في حياة سيف الدولة وحروبه ، لأنه كان يؤمن بها طريقاً وحيدة إلى سلامة الوطن ، وردع الأعداء ، وتحقيق المطامح.

والواقع أن مظاهر العنف الأقصى ، تبهر سيف الدولة ، بل تفرحه ، فهو يشعر بوجوده الحق ، في ساحات القتال ، وقد اختار ركوب الأهوال ، ومواجهة الصعاب ، وتحدي العقبات. فالعنف والحرب ، وسفك الدماء مفاتيح بلوغ الأرب :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

فإذا أقدم تجاوزت شجاعته كل تقدير :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وثبت ثبات من يطمع في الموت :

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم

ولئن غلبت صور الشجاعة والقوة والعنف والإقدام والتحدي ، في رسم خصائص سيف الدولة ، فإن معاني العلم ، والعقل ، والروية ، لا تكاد تخلو منها قصيدة . ذلك أن الثائر ، لا بد أن يكون على قدر كبير من الإدراك والحلم والمعرفة ، وإلا فكيف يحسّ تبيّن الحق من الباطل ، والصحيح من السقيم . بل إن لم يكن كذلك ، كان أدنى إلى أن يكون انفعالياً ، متهوراً ، فانتفت عنه صفة الثوري الحق . ولهذا شدد المتنبي على تلك الصفات في سيف الدولة فهو الحليم القادر في كل حال :

رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك المهندا

وهو الذي يزين الأمور ويضعها في مواضعها :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

وهو البعيد النظر ، العميق الفكر ، حتى ليدق على الأفكار ما يخطط له :

يدق على الأفكار ما أنت فاعل
فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

وهو الذي وسع علمه الزمان ، فلا يغرب عنه قول ، ولا يجد عليه جديد :

وقتلت الزمان علماً فما يُغْ
ـرِبُ قولاً ولا يجدد فعلا

والعطاء طبع أصيل ، فهو جود بالنفس قبل اليد ، وبالحياة قبل المال . فإذا كرم بمال ، لم يكن مال الرعية ، وإنما بما يجنيه من أعدائه بالحرب .

وتحيي له المال الصوارم والقنا
ويقتل ما تحيي التبسم والجدا

ولا ننس صفة لازمة لكل ثوري ، وهي أنه سيد قدره ، يتصرف بالأحداث والأيام ، تصرف من يملكها ويسيرها :

ودانت له الدنيا فأصبح جالساً
وأيامها في ما يريد قيام
فتى تتبع الأزمان في الناس خطوه
لكل زمان في يديه زمام

* * *

أكتفي بهذا القدر، من صفات الثوري، التي كيف تلفت في مدائح المتنبي في سيف الدولة، طالعتك في صور مختلفة، كأنما تتنافس في الإبداع، والقدرة على استكمال اللوحة النادرة التي رسمها عن الأمير العربي...

ولا بد من الإشارة إلى ورود ذكر الاسلام في معرض وصف معارك سيف الدولة ضد الروم.

ألواقع أن الإسلام لم يكن دين الدولة فحسب، وإنما هو قانونها، والمبدأ الذي تستند إليه في سياستها واجتماعها واقتصادها. فليس عجيباً أن يرى المتنبي في سيف الدولة بطلاً من أبطاله. أليس يشبه موقفه، موقف من يدافعون عن الاشتراكية، أو الديمقراطية اليوم، ويرون في من يناضلون في سبيلها، أبطالاً؟

ثم إن كل الفرق السياسية والدينية، كانت تنطلق من الدين الاسلامي في تفسير خلافاتها السياسية، قلت في تفسير خلافاتها، ولم أقل إن واقع خلافاتها كان دينياً. فالصراع القومي العربي الفارسي، مشهود منذ سقطت الدولة الفارسية، وكان سبب اغتيال عدد من الخلفاء منهم عمر بن الخطاب، والهادي والمهدي، وقد برز الخلاف شديد الوضوح، والآثار، في العهد العباسي.

وإذا كان المتنبي قد أشار إلى دفاع سيف الدولة عن الإسلام، خاصة في صراعه مع الروم، فقد ركز دائماً على الجانب القومي في بطولته، كما قدمت.

ولهذا عرّض، وهو في طريقه إلى عضد الدولة البويهي، بالبويهيين وكافور، في القصيدة التي بعث بها إلى سيف الدولة، وقد اعتبره،

وحده، المدافع عن الدولة العربية، بينما آل بويه وكافور، وغيرهم من الأمراء أذلاء حقيرون، وما أبقى عليهم، وأعزهم، ودفع عنهم ذلّ احتلال الروم ما يملكون إلا سيف الدولة. وفي ذلك يقول:

لـو تحرفت عـن طريق الأعادي
ربط السدرُ خيلَهم والنخيل
ودرى مـن أعـزه الـدفع عـنـه
فيهما أنـــه الحقير الـــذلـــيـــل

ولا أستبعد أن يكون هذان البيتان من أسباب مقتله، فقد كان عضد الدولة يطمح إلى أن يرتفع إلى مستوى سيف الدولة، ولو في شعر المتنبي، ولكن الشاعر يهجوه في البيتين، مع أنه كان في طريقه إليه.

لا ننس كذلك بيتاً آخر في القصيدة:

والمسمون بـالأمير كـثير
والأمير الذي بها المأمول

يعنيني هنا أن أذكر بيتين في القصيدة ذاتها، للثاني منهما دلالة خاصة، على تلك الصلة الوثيقة بين سيف الدولة والمتنبي.

ارتحل المتنبي عن سيف الدولة، ونقم عليه في ساعات شعوره بفراغ الوجود حوله، وقماءة من يلقى من أمراء وقادة، وساعات الضعف التي حاول فيها إلقاء تبعة الفراق على سيف الدولة، واضطرار أبي الطيب إلى الضرب في الأرض سعياً إلى ما يريد، ولا يقع إلا على الخذلان، والانجرار إلى الخطأ تلو الخطأ.

ارتحل أبو الطيب عن سيف الدولة ، وفي رأسه نموذج واحد ، يشتد وضوحاً ، كلما طالعه الضعفاء والمتخاذلون والتافهون. هذا النموذج هو سيف الدولة :

الذي زلت عنه شرقاً وغرباً
ونداه مقابلي ما يزول
ومعي أينما سلكت كأني
كل وجه له بوجهي كفيل

* * *

ثمة حادثة يجدر ألا نهملها ، فقد كان من شأنها أن تهتك الوشائج التي تشد أبا الطيب إلى سيف الدولة ، مع ذلك لم يولها الشراح والمحققون ما تستحق ، بل تناقلوها على اختلاف تفاصيل الروايات ، وكأنها لا دلالة لها على الاطلاق.

أما الحادثة فهي محاولة اغتيال المتنبي.

تروى وكأنها أكثر من حادثة. من الروايات ما يقول : «لما أنشد هذه القصيدة — أي قصيدة واحرّ قلباه — وانصرف ، اضطرب المجلس. وكان نبطي من كبراء كتابه يقال له أبو الفرج السامري ، فقال له : دعني أسعى في دمه فرخص له في ذلك». وتروي ثلاثة أبيات يهجوه فيها أبو الطيب ، وكأن لها علاقة بالرواية السابقة. فإذا صحت هذه العلاقة ، فإن معنى ذلك أن سيف الدولة تآمر على أبي الطيب. وهذا نيل من أخلاق سيف الدولة ، واتهامه بالغدر. وما كان سيف الدولة ليغدر ، خاصة وأن من يتآمر عليه — إذا صح ذلك — المتنبي الذي اصطفاه دون من عاش في

مجلسه. ثم إن سيف الدولة، كان يستطيع — بكل بساطة — أن يأمر بقتل المتنبي، فما حاجته إلى التآمر والغدر؟ ثم إن ذلك يقودنا إلى القول إن بين سيف الدولة وأبي الطيب خلافاً عميقاً، على مستوى الرجلين. وما يكون الخلاف إلا على أهداف كبرى. فإن قلنا غير ذلك، جهلنا أخلاق الرجلين.

الرواية الثانية: «في بعض نسخ الواحدي — لا فيها جميعاً —: لما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة، وقف له رجالةٌ في طريقه ليغتالوه، فلما رآهم أبو الطيب، ورأى السلاح تحت ثيابهم، سلّ سيفه، وجاءهم حتى اخترقهم، فلم يقدموا عليه. ونمي ذلك إلى أبي العشائر، فأرسل عشرة من خاصته، فوقفوا بباب سيف الدولة وجاء رسوله إلى أبي الطيب، فسار اليه حتى قرب منهم، فضرب أحدهم يده إلى عنان فرسه، فسلّ أبو الطيب السيف، فوثب الرجل أمامه، وتقدمت فرسه الخيل وعبرت قنطرة كانت بين يديه، واجترهم إلى الصحراء، فأصاب أحدهم نحر فرسه بسهم فانتزع أبو الطيب السهم، ورمى به، واستقلت الفرس وتباعد بهم ليقطعهم عن أمداد إن كان لهم، ثم كرّ عليهم بعد أن فني النشاب، فضرب أحدهم فقطع الوتر وبعض القوس، وأسرع السيف إلى ذراعه، فوقفوا عنه واشتغلوا بالمضروب فسار وتركهم. فلما يئسوا منه قال له أحدهم في آخر الليلة: نحن غلمان أبي العشائر. ولذلك قال: «ومنتسب عندي إلى من أحبه». ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة في الليلة الثانية مستخفياً، فأقام عند صديق له، والمراسلة بينه وبين سيف الدولة، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل ذلك أو أمر به».

هذه الرواية، تنقض الرواية الأولى عن السامري، وموافقة سيف الدولة على اغتيال أبي الطيب. ثم إنها تنطوي على قصتين: الأولى تشير

إلى أن رجالة اعترضوا طريقه ليغتالوه ، وهو خارج من مجلس سيف الدولة ، ولكن الرجل اخترقهم فلم يقدروا عليه. والثانية تشير إلى أن سيف الدولة دعا أبا الطيب بعد محاولة اغتياله ، فجاءه ، وإذا أبو العشائر قد أعدّ عشرة من خاصته لاغتياله.

إذن ، ثمة محاولتان ، تلي الواحدة الأخرى مباشرة ، اشترك سيف الدولة في الثانية منهما ، على الأقل. فهو الذي دعاه إليه ، بعد الأولى ، فهيأ الفرصة ، لأبي العشائر ليقوم بالمحاولة الثانية ، مع اعتقادي أن أبا العشائر ، ليس ممن اتصفوا بالغدر ، وأنه صديق أبي الطيب الصدوق ، فلا سبيل إلى أن يشترك في مثل هذه المؤامرة. والرواية نفسها تكذب ذلك. فلِمَ قال له أحد خاصة أبي العشائر في آخر الليلة : «نحن غلمان أبي العشائر». وأين لقيه ، وهل قصده ليقول له ذلك؟ والأمر الآخر الذي يشير إلى بطلان الرواية ، القول إن أبا الطيب اجترهم إلى الصحراء. فأين هذه الصحراء قرب حلب؟ أعرف حلب جيداً ، وأعرف أن ما حولها بساتين خصبة ، وأن الصحراء تبعد عشرات الكيلومترات ، إن لم أقل المئات. فكيف اجترهم إلى الصحراء؟

ما زلت أعتقد أن التزوير والتشويه ، تناولا الحادثة ، كما تناولا معظم التاريخ العربي.

وما زلت أرى أن الاغتيال لم يكن من أخلاق سيف الدولة أو أبي العشائر أو أبي فراس نفسه ، على ما كان يضمر للمتنبي من كراهية. وأن التفكير في الاغتيال يقود إلى الاعتقاد ، على الأقل ، أن بين سيف الدولة والمتنبي خلافاً أساسياً ، مع العلم أن الروايات جميعاً ، تؤكد أن المتنبي بقي عند سيف الدولة سنوات بعد محاولة اغتياله.

قرأت رواية الحادثة — ولم أعد أذكر المصدر — على نحو آخر ، أجده أقرب الى المعقول . تقول الرواية إن المتنبي كان خارجاً من لدن سيف الدولة ، قاصداً خيامه ، خارج حلب . — وقد ذكرت من قبل أنه كان دائماً ينزل مع حاشيته المكونة من رفاق الكوفة ، الذين وصفهم أكثر من مرة ، وسيرد ذكرهم حين عودته من مصر — في الطريق ، كان كمين يترقبه . وأطلق أحدهم سهماً جرح رقبة فرسه . فتبين المتنبي القوم ، فحمل على من بيده القوس ، فضربه بالسيف ، فقطع الوتر ، وشج ذراعه ، فسقط . وحمل على الباقين ، ففروا من وجهه . وعاد إلى من شج ذراعه ، فأنذره بالموت إن لم يبح باسم من أرسلهم لاغتياله . فقال : «أبو العشائر» ثم أُغمي عليه . ولكن أبا الطيب أدرك أن في الأمر دسيسة ، وأن من أنفذهم لاغتياله ، أوصاهم أن يزعموا إذا حقق معهم بعد مقتله أن أبا العشائر من سيرهم . بل لعل من أنفذهم أفهمهم أن أبا العشائر من يقف وراء المحاولة . وبذلك يصيب «عصفورين بحجر واحد» .

ولكن . إذا لم يكن سيف الدولة ، أو أبو العشائر ، أو أبو فراس من فعل ذلك ، فمن المسؤول ؟

لم أجد تحقيقاً يفي بالغرض . ولا أعلم كيف تمّ تناسي الحادث ، فلا سيف الدولة حقق في الأمر ، ولا المتنبي ألحّ . — هذا في الروايات التاريخية على الأقل — .

أعتقد أن من حاول اغتيال أبي الطيب ، قرعويه . فقد كان ذا سلطة ، وكان أحد القادة ، بل ربما كان كبير القادة ، وكان يعرف أن المتنبي يحرض سيف الدولة على التخلص منه . فلِمَ لم يفعل سيف الدولة شيئاً ؟ أو أنه عاقب قرعويه ، ولكن التاريخ لم يحمل إلينا خبراً عن ذلك ؟

على أني لا أستبعد أن يكون وراء المحاولة جماعة لا علاقة لها بكل من ذكرنا. فلِمَ لا يكون أخصام المتنبي ومن ذكرنا جميعاً، هم الذين دبروا المكيدة؟ أما كان للبويهيين «عملاء» — كما يقال اليوم — في إمارة سيف الدولة؟ أما حاول العلويون اغتيال المتنبي أكثر من مرة؟ أما قال المتنبي يوماً: «ورائي وقدامي عداة كثيرة»؟

— ٥ —

غادر المتنبي حلب سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، دون أن يعلم سيف الدولة برحيله. فما استأذنه ، بل طوى خيامه سراً ، وخرج في حاشيته ليلاً ، وهو لا يكاد يعلم أين تحطّ به الرحال.

لا بدّ أن خلافاً نجم بين الاثنين ، خلافاً كان من العمق ، بحيث لم يبق معه مجال لائتلاف الرجلين الكبيرين ، اللذين استمر ائتلافهما تسع سنوات.

ولكن ، ما كان ذلك الخلاف؟

لنسمع إلى ما ورد حول ذلك في الصبح المنبي : «قال عبد المحسن بن علي ابن كوجك ، حدثني أبي قال : كنت بحضرة سيف تلدولة ، وفي المجلس أبو الطيب المتنبي ، وأبو الطيب اللغوي ، وأبو عبد الله ابن خالويه النحوي ، وقد جرت مسألة في اللغة بين أبي الطيب اللغوي ، وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبي ، وضعف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحاً من حديد يشير به إلى المتنبي. فقال له المتنبي : ويحك ! أسكت فإنك أعجمي ، وأصلك خوزي فما لك وللعربية !

فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه. فغضب المتنبي من ذلك ، ولا سيما إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً ، وكان ذلك أحد أسباب مفارقته لسيف الدولة».

بعض الرواة ، يجعل الضرب بالمفتاح ، خلال إلقاء المتنبي قصيدته : «واحر قلباه». وبعضهم يذكر قول المتنبي لابن خالويه : «اسكت... الخ» يوم ألقى قصيدته «وفاؤكما كالربع ...» في أول لقاء له بسيف الدولة ، إذ اعترض ابن خالويه على قول أبي الطيب : «وأشفاه ساجمه» فقال : لا يقال : أشفاه ، بل شفاه. فقال أبو الطيب : اسكت ، ليس هذا من علمك ، إنها أفعل التفضيل لا فعل.

على أية حال ، فقد أحسن راوي الحادثة عن أبيه «ابن كوجك !» إذ ختم قصته بقوله : وكان ذلك أحد أسباب مفارقته لسيف الدولة.

ما يعنيني الأسباب الحقيقية !

أعتقد أن الخلاف على الأهداف. فلا تحققت الوحدة مع إمارة ناصر الدولة في الموصل ، ولا تحقق حلم القضاء على الخلافة العباسية ، وهيمنة البويهيين ، وقيام الدولة العربية.

وأعتقد أن وجود مجموعة من الأعاجم لدى سيف الدولة ، بينها قرعويه وابنا خالويه ، كانت تنغص العلاقة بين المتنبي وسيف الدولة. فقد كانت هذه المجموعة تكيد للمتنبي ، وتحاول الإساءة إليه ، وإفساد ما بين الرجلين. وقد ذكرت من قبل ، أن قرعويه هو من حاول اغتيال المتنبي ، في رأيي. أما الشاعر فكان يصر دائماً على «تصفية» حاشية سيف الدولة من الأعاجم.

وأرى أن المتنبي كان شديد الإلحاح على تحقيق الأهداف ، وأن سيف

الدولة كان يضيق به لإلحاحه ، ويزداد هذا الضيق حدة ، كلما شعر أنه غير قادر على تحقيق شيء ، في مثل ظروفه ، وكأنما كان يحس أنه يحنث بوعد.

كان شعور القصور يتراكم حتى ليغدو نوعاً من الإحساس بالذنب ، بينما المتنبي— الضمير لا يعذر ، بل يزداد إلحاحاً . ولعل هذا من أسباب ما كان يحدث من فتور بين الرجلين.

أضف إلى ذلك أن محاولة اغتيال المتنبي ، حفرت عميقاً في ذاته . وأعتقد أنها كانت في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر في حلب . والواقع أن كل من روى الحادثة أغفل تاريخها . كما أن قصيدة « واحر قلباه » التي أغفل المؤرخون تاريخها ، واختلفوا على موقعها من الديوان ، جاءت بعد محاولة الاغتيال .

مهما كانت الأسباب والروايات والتواريخ ، فإن الرجلين افترقا ، وكان للفراق الأثر البعيد على حياة المتنبي وفكره وموقفه الثوري .

كانت خيبة الأمل في نفس المتنبي كبيرة . مادت الأرض تحت قدميه ، وانهارت الصخرة الثابتة . أحس أن الآمال الكبرى التي علقها على سيف الدولة ، تهيلت ، دفعة واحدة ، في فراغ كبير . حاول أن يراجع حساباته ، ولكن كل شيء بدا مختلطاً مضطرباً مشوّشاً . أهم من ذلك كله ، السؤال الخطير : من أين أبدأ؟ ولا قاعدة شعبية ، ولا من ترفعه إلى سدة القيادة كما فعلت مع سيف الدولة !

ترى ، هل شعر المتنبي يوماً أنه أخطأ الاختيار؟

قد يكون ساوره الشك ، في غمرة التشرد والشعور بالفشل ، ولكن

شخص سيف الدولة ظل ماثلاً في أعماقه ، والحنين إليه متمرداً على كل شك أو طعن.

مرّ المتنبي في حالات نقمة. وكانت نقمته قاسية ، حتى ليقول :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم
ولا يـدرّ على مـرعـاكـم اللبن

ولكن مبعث هذه النقمة إلقاء تبعة الفراق والانحدار عن كاهله ، ليلقي بها على كاهل سيف الدولة.

قد يقال : أمثل المتنبي يخشى أن يقر بخطئه ، وأن يواجه ما فعلت يداه ؟ كان المتنبي آنذاك في مرحلة السقوط ، التي أشار إليها هو نفسه في قوله ، بعد أول مدحة مدح بها كافور :

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا
وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

إذن ، فارق أبو الطيب سيف الدولة ، فعاش مرحلة قلق وتشرّد نفسي وذهني ، وضياع شلّ فيه القدرة على الحكم السليم.

حطّ في دمشق ، وواليها يهودي ، من قبل كافور ، الذي كان قد اقتطع دمشق من إمارة سيف الدولة ، في فترة كان فيها سيف الدولة مشغولاً بقتال الروم ، والقبائل التي أثارها البويهيون عليه.

أراده اليهودي على مدحه ، فرفض أبو الطيب ، وارتحل سريعاً ، حتى لا يمكنه من إيذائه.

توقف في الرحلة عند صديق قديم هو ابن طغج.

تميزت هذه الفترة بالضياع ، والفراغ ، ومراجعة الحسابات . وتميزت كذلك بأسفار غامضة ، وبمحاولة اغتيال ، قام بها بعض العلويين.

إلى أين كان المتنبي يتجه بأسفاره الغامضة؟ كان يقيم مع حاشيته في خيامه خارج الرملة . ولم يكن لأحد أن يسأله عن حضوره أو غيابه.[1] وكان بين الحين والحين يزور صديقه ابن طغج . ولكن من حاولوا اغتياله كانوا يراقبون تحركاته ، فتمكنوا من إعداد كمين له في بعض سبله ، ولكنه استطاع أن ينجو ، بشجاعته.

أعتقد أنه كان ، في أسفاره ، يقصد أطراف العراق ، أو ما دونها ، فيجتمع إلى رسل من الكوفة.

ليس في التاريخ ، ولا أحاديث الرواة ، ما ينبيء إلا عن أسفاره . فلا المتنبي باح بأهداف تلك الرحلات ، ولا الرواة تقصوا الأمر . ولكني أعتقد أن صلة أبي الطيب لم تنقطع بأعوانه في الكوفة ، حتى حين كان لدى سيف الدولة . وقد ألمح في بعض قصائده فيه ، إلى أن العراق ومصر تؤيد الأمير الحمداني ، وتترقب نهوضه للمهام الجسام.

ولا أستبعد أن المتنبي ، في مرحلة الضياع ، وخيبة الأمل ، فكّر في العودة إلى الكوفة ، والبدء من مواقعه الأولى . بل إن ذلك أمر طبيعي ، فهو وحده يعيد إليه الثقة بنفسه وشعبه والأهداف.

ولكن رسل كافور بدؤوا يردون الرملة ، يدعون المتنبي إلى الفسطاط ، ويمنونه بالأماني العريضة.

رفض أبو الطيب الدعوة أكثر من مرة ، فقابل كافور الرفض بالالحاح والوعود . وكان لابن طغج دور في إقناعه بقصد كافور ، خاصة بعد أن وعده كافور بإقطاع.

لطالما خطر لي هذا السؤال : هل اتفق ابن طغج والمتنبي على أمر؟ ... سنعرف أن أبا شجاع[1] والخزاعي وبعض رفاقها ، كونوا مع المتنبي مجموعة لتقويض حكم كافور. فهل كان ابن طغج على علاقة بهم؟ يخيل إليّ أنه لم يكن بعيداً عن تلك المجموعة.

على أية حال ، لقد ترك المتنبي أمواله عند ابن طغج ، مما يؤكد ثقته به ، ويوصي بحذر الأثنين من غدر كافور.

حين قبل المتنبي دعوة كافور ، عرف أنه سقط سقطته الكبرى ، وأن كل المبررات والأعذار ، لن تبرىء ساحته مما أوغل فيه من السقوط.

وهو سقوط الثوري ، لا سقوط الانسان العادي ، أو الانتهازي أصلاً. العادي غرضة للاغراءات ، فلا مناعة من خصائص أو مبادىء تجنبه الوقوع في شرك الإغراء. والانتهازي ساقط في الأساس.

أما الثوري فسقوطه مريع ، تنسحب آثاره على ذاته ، وعلى ما يؤمن به. ونجاحه — المؤقت في الغالب ، مع العلم أن استحالة النجاح أمر أقرب إلى الحدوث — يغري غيره من الثوريين بالانحدار. بل إن سقوطه كثيراً ما يفسر بأنه لم يكن ثورياً يوماً ، والنماذج كثيرة في عصرنا.

كان ثمة سببان أساسيان لسقطة المتنبي : الأول خيبة أمله في ما رخص له النفس والنفيس لدى سيف الدولة ، وبالتالي الفراغ والضياع والتشرد النفسي والفكري والحياتي. والثاني ما في وعد كافور بإقطاع من إغراء. فإذا كان كافور الذي كان رقيقاً ، وسخرية بين رفاقه ، استطاع بلوغ الملك ، أفلا يكون لمثل المتنبي أن ينطلق من إقطاع الى تحقيق الحلم الكبير.

---

(١) أبو شجاع هذا والي الصعيد. الذي كان يخشاه كافور.

وثمة سبب ثالث ، أعتقد أنه ليس ببعيد عن التقدير ، وهو اتفاقه مع ابن طغج ، على عمل مشترك ، يسهم فيه أبو شجاع والخزاعي ورفاق لهما في مصر.

وإذا كان هذا السبب يخفف من حدة السقوط ، فإن السببين الآخرين لا يبرران ما أقدم عليه أبو الطيب ، بل يدينانه ، لأنه تذرع بهما إلى سقوطه وتخليه عن روحه الثورية.

ماذا كان من أمر المتنبي عند كافور؟

أرسل كافور وفداً يرافقه الى الفسطاط ، وأفرد له جناحاً خاصاً في قصوره أدرك المتنبي ،من الوهلة الأولى ، أنه موضوع في الإقامة الجبرية ، وأنه مراقب. كان من عادته أن ينزل مع حاشيته في خيامه. فأبى كافور ، زاعماً تقدير المتنبي واحترامه ، إلا أن ينزله في جناح خاص ، ليكون قريباً منه ، وليهيء له الراحة والطمأنينة !...

وأدرك المتنبي كذلك أن كافور لا يثق به ، وأن وعوده لن تتحقق. ومذ دخل عليه ، وعاينه ، ورأى من سوء منطقه ، وضحالة فكره ، علم أنه سقط السقطة الكبرى.

كيف كان مسلك المتنبي العام خلال أربع سنوات قضاها في مصر؟

في قصيدته الأولى مؤشرات كثيرة. كان المتنبي كمن ينتقم من نفسه ، حتى على المستوى الشعري ، ومن حنينه الى سيف الدولة ، ومن سيف الدولة ، ومن كافور آخر الأمر.

الجزء الأول من القصيدة ، يتنافى مع كل تقاليد المديح ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في اللغات جميعاً.

يتمنى أبو الطيب الموت، في أول مدحة في كافور، وفي البيت الأول. وهو موقف يرفض فيه — سواء عن وعي تام بما يفعل، أو بحافز داخلي لم يدركه، وأستبعد ذلك — يرفض وجوده عند كافور، وقبوله دعوته، وسقطته، وكل مسلكه الأخير جملة وتفصيلاً:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أدهى من ذلك سبب تمني الموت. لقد ساء الزمن، بما فيه ومن فيه، حتى لتصاب منه بداء لاشفاء منه. بل حتى لا بد لك من تمني الموت. أن الوجود خلا من صديق صدوق، أو عدو حقيقي. والعدو من يسلك كل سبل الختل للقضاء على عدوه. هذا على الأقل في العرف المشهور.

لعل أبا الطيب شعر أنه شديد اليأس، وما ذاك مما يليق بمثله، فانتفض على يأسه، وبرر يأسه بخلو الحياة من الصديق والعدو، ثم أردف ذلك بأبيات ثلاثة يحدد فيها، من منطلقه القديم، معنى القوة. فلا معنى للسلاح والخيل والمال والرجال، إذا كان المرء ذليلاً في الأصل. «وما تتقي الأسد إلا إذا كانت ضارية».

وفي الوقت ذاته، ينتقم تلميحاً من سيف الدولة وتصريحاً من كل أمراء عصره، الذين يملكون ولكنهم يقصرون عن مدى الطموح، ويرضون الذل بديلاً عن الكرامة والعزة. أما التلميح إلى سيف الدولة، فنستشفه من الصراع بين المتنبي وبين حنينه إلى امير حلب، في القسم التالي.

يتنافى القسم الثاني كذلك مع تقاليد المديح، رغم النهاية التي شاء بها المتنبي أن يرضي كافور.

يجسد هذا القسم الصراع العنيف بين حب المتنبي سيف الدولة ، وبين رغبته في إلقاء التبعة عليه ، في مسألة الفراق ، ثم الرغبة في الانتقام منه ، لزعم تخليه عنه .

حببتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غداراً فكن أنت وافيا

على أن المتنبي ، مهما حاول ، يحس في أعماقه ، أنه مسؤول كذلك عن الفراق ، وأن حبه سيف الدولة فوق كل حب ، رغم التبرير الأخير ، بأنه يألف الأشياء ، ولا سبيل إلى نسيان الماضي بسهولة .

أما القسم الثالث ، فرغم أنه مديح في كافور ، وتعريض بسيف الدولة وباقي الأمراء ، فإن فيه أموراً ، يجدر التنبيه إليها ، بعضها واضح ، وبعضها يحتاج إلى استشفاف.

١ ــ مطالبة كافور بالاقطاع الذي وعد به . وكأن أبا الطيب يقول له : لقد وفيت فجئت مصر ومدحتك ، وعليك الوفاء بالشطر الثاني من الاتفاق .

وغير كثير أن يزورك راجل
فيرجع ملكاً للعراقين واليا

هذا الموقف ناب ، في تقاليد المديح . لأنه يشدد على أمر ، وهو أن أبا الطيب جاء مصر ، لا احتراماً وتقديراً لكافور ، وإنما طمعاً في الاقطاع .

٢ ــ التركيز على السواد في عدة أبيات ، مستغلاً قدرته في إظهار هذا السواد تمييزاً . وفي ذلك ما فيه من سخرية حادة مبطنة :

فجاءت بنا إنسان عين زمانه
وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

* * *

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً
إليه وذا اليوم الذي كنت راجيا

* * *

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده
وكل سحاب لا أخص الغواديا

* * *

ومن قول سام لو رآك لنسله
فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

* * *

لا بد أن يتساءل المرء : ألم يجد أبو الطيب غير سواد كافور ، موضع جمال ، حتى يركز عليه هذا التركيز؟

ثم ، ما هذه العودة إلى سام ، والمقارنة بين السواد والبياض ، مما لا يوحي بأقل من السخرية المبطنة؟

٣ــ سلك أبو الطيب ، في عدد من الأبيات مسلك الذم في معرض المدح ، في مهارة لا تترك عليه ممسكاً . فعبر أبيات التعريض بسيف الدولة وغيره من الأمراء ، وعبر مديح حاول أن يرقى به إلى مستوى

قصائده في سيف الدولة ، وإن فشل في معظمه ، ليغري كافور ، ويدعوه الى الثقة به ، وبالتالي ليقطعه الأقطاع ، وأفسح لأبيات الذم في معرض المدح ، ومنها :

فجاءت بنا إنسان عين زمانه
وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

إنسان العين ، خير ما في العين. والتشبيه بإنسان العين ، عند العرب ، يعني رفعة المقام . ولكن اقتران «إنسان العين» وهو أسود ، بسواد كافور ، ثم تشبيه الآخرين بالبياض والمآقي ، لا يمكن أن يوحي بحسن نية أبي الطيب .

البيت التالي برهان أشد على مسلك الذم في معرض المدح :

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً
إليه وذا اليوم الذي كنت راجيا

لا ريب أن المتنبي كان يقصد عكس الظاهر ، فهو يهجو زمانه وكافور جميعاً . وقد قصد المعنى التالي : ألم يدخر لي الزمان إلا هذا الوجه وهذا اليوم؟ ولم يدخرني الزمن الرديء إلا لهذه الخاتمة الشقية ، أن أقف بين يدي كافور مادحاً؟

وهذا البيت :

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى
ولكن بأيام أشبن النواصيا

يستخدم تعبير «شيب الناصية» لكل أمر سيء ، أو فظيع ، أو شديد

الحقارة. والعامة تستعين به حتى يومنا هذا. يقال: «هذا أمر يشيب الشعر — أو لقد شيبت شعري».

ومعنى البيت المبطن: إنك يا كافور نلت الحكم بما يشيب شعر الرأس. إشارة إلى اغتيال سيده، ثم سيدته، وإلى ما استخدم من أساليب الغدر، مما يشيب الناصية.

كذلك البيت الذي ذكرته سابقاً: «ومن قول سام». ثم نعت كافور بالاستاذ: «مدى بلّغ الأستاذ أقصاه ربه». وقد كان كافور لدي الأخشيد أستاذاً، أي كبير الخدم، أو المسؤول عن العبيد.

قد يقال: إن المتنبي قصد ظاهر الأبيات، ولم يبطن العكس، والدليل على ذلك الأبيات التي تسبقها أو التي تليها. أجيب على ذلك، ألا سبيل إلى «تمرير» هذا الذم، إن لم يحطه المتنبي بما يزيل كل ممسك. ولا ننس أنها مدحته الأولى في كافور. ثم. ألا يتساءل المرء: لِمَ استخدم الصيغ التي يمكن أن تفسر على وجهين؟ وهل يمكن أن نظن أن ذلك ورد عفو الخاطر؟ المتنبي سيد لغته، وما كان ليستخدمها على ذلك النحو إلا عن قصد.

لِمَ لم يكن كافور راضياً؟ يقال إن بعض حاشيته كان يشرح له معاني القصيدة، وينبّه إلى مقاصد المتنبي. وليس الأمر بمستغرب. على أني لا يعنيني أن أعوّل عليه. غير أن المتنبي ما كاد يخرج من مجلس كافور إلى جناحه، حتى عارض القصيدة بأبيات، يشير مطلعها إلى مدى شعوره باحتقار نفسه، وضعته، وإحساسه بتخليه عن قيمه، وكأنه دفن ماضيه الثوري إلى الأبد:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا
وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا[1]

ومنها قوله:

تظن ابتساماتي رجاء وغبطة
وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

ومنها:

ولولا فضول الناس جئتك مادحاً
بما كنت في سري به لك هاجيا
فأصبحت مسروراً بما أنا منشد
وإن كان بالإنشاد هجوك غاليا

في البيتين إشارة واضحة إلى أن كافور لا يفقه الشعر ولا يميز بين هجاء ومديح. ولكن المتنبي يخشى أن يشرح له من حوله معناه، لذلك يبطن الهجاء ويظهر المديح.

ومنها:

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربات الحداد البواكيا

(١) يورد بعض الشراح هذه القصيدة متأخرة في الديوان. بينما أثبتها الواحدي وآخرون بعد القصيدة الأولى «كفى بك داء» مباشرة. على أن ما فيها من إشارة إلى خوف المتنبي من فضول من حول كافور. وإلى بشاعة خلقة كافور وسواده. وإلى سخريته من آماله. ومأساته بسقوطه يؤكد أنها تلي الأولى مباشرة. مع ذلك فإن تأخرها أو تقدمها لا يقدم ولا يؤخر في ما انطوت عليه من معانٍ.

الأمثلة على الذم في معرض المدح . في مدائح المتنبي في كافور كثيرة . كقوله في القصيدة الهمزية التي يوردها بعض الشراح . بعد القصيدة الأولى :

تفضح الشمس كلما ذرت الشمـ
س بشـــمس مـــنيرة سوداء

والشمس المنيرة السوداء «وجه» كافور الأسود بالطبع .

على أن أشهر قصيدة في هذا الباب . تلك التي سأله كافور أن يهجو بها شبيب العقيلي .

وقصة شبيب من أغرب القصص .

كان قد ثار على كافور . واحتل دمشق . فاستقبله أهلها استقبالاً نادراً . لأنه أنقذهم من حكم كافور وظلمه . وفيما هو سائر على فرسه بين الجماهير المحتشدة . عثرت قائمة فرسه بين حجرين[1] . فسقطت . وسقط شبيب . واصطدم رأسه بحجر صدمة قوية . فنهض وجلس على جانب من الطريق . وقد أدرك أنه ميت لا محالة ، ورفض أن يمد له يد المساعدة أي إنسان . وظل كذلك فترة . حتى هوى ميتاً . وهذا ما أشار إليه المتنبي في قوله :

تـقصـده المقـدار بين صـحابـه
على ثـقـة من دهـره وأمـان

(١) من يعرف طُرقات دمشق القديمة . وطرقات معظم المدن السورية . يذكر أن الشوارع كانت عامة ضيقة . وأن في وسطها سواقي . تغطى بالحجارة . وعلى جانبي كل شارع رصيفان ضيقان ومرتفعان قليلاً . كان سكان الأحياء يجلسون عليهما صباحاً أو عصراً . يتسامرون .

وقوله :

أتته المنايا في طريق خفية
على كل سمع حوله وعيان

ما يفعل المتنبي وقد سأله كافور هجو شبيب؟

هل يهجو ثائراً . والثورة في أعماقه؟

ثم هل يهجو ثائراً على كافور؟

مع ذلك كان لا بد من نظم شيء . وقد ألح عليه كافور.

فلتكن القصيدة نموذجاً في براعة مدح شبيب في معرض ذمه . والذم في معرض مدح كافور . بل إن من يقرأ القصيدة دون معرفته القصة . لا بد أن يعتقد أنه يمدح شبيباً ويهجو كافورَ. وهذه بعض الأبيات في شبيب :

برغم شبيب فارق السيف كفه
وكانا على العلات يصطحبان

* * *

وما كان إلا النار في كل موضع
تثير غباراً في مكان دخان

فنال حياة يشتهيها عدوه
وموتاً يشهِّي الموت كل جبان

نفى وقع أطراف الرماح برمحه
ولم يخش وقع النجم والدبران

ولم يدر أن الموت فوق شواته
معار جناح محسن الطيران
وقد قتل الأقران حتى قتلته
بأضعف قِرنٍ في أذل مكان
أتته المنايا في طريق خفية
على كل سمع حوله وعيان
ولو سلكت طرق السلاح لردها
بطول يمين واتساع جنان

أما في كافور فيقول :

قضى الله يا كافور أنك أول
وليس بقاض أن يرى لك ثان
فما لك تختار القسيّ وإنما
عن السعد يرمي دونك الثقلان
وما لك تعنى بالأسنة والقنا
وجدك طعان بغير سنان
ولِمْ تحمل السيف الطويل نجاده
وأنت غني عنه بالحدثان

ألا تذكر هذه الأبيات بنهج الحطيئة في قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ثم ألا يؤكد هذا النهج قول المتنبي ، بعد ذلك بزمن :

يموت به غيظاً على الدهر أهله
كما مات غيظاً فاتك وشبيب

لم أذكر كل ما تقدّم لأبريء ساحة المتنبي ، بل لأشدد على القول إنه كان يدرك مدى انحداره ، وتخليه عن قيمه الثورية . ولأؤكد أن المتنبي انحرف عن نهجه الأول ، حتى بات أقرب إلى الانتهازية ، وما مسلكه تجاه كافور — رغم أن كافور جدير بأكثر من ذلك الاحتقار ، لا لسواده ، وإنما لشخصه ولؤمه وتفاهته — ما مسلكه إلا صورة عن نفس محطمة ، ضائعة ، تغريها الانتهازية ، فهي ناقمة من جهة ، مستبقية بعض الجسور من جهة ، مدارية من جهة ثالثة . إلى هذا يشير ، بعد رحيله عن مصر :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى

لا ، ليس هذا المتنبي الذي نعرف ، هو نفسه كان يعلم ذلك ، يحاول أن ينقذ نفسه من قماءة الموقف الذي ساقها إليه ، وأن يرتفع بها إلى مستواها الأول ، ولكنه يشعر بعدم القدرة ، بل باستحالة ذلك ، ما دام هو الذي أوقع نفسه في ذلك المنحدر .

أليست قصيدته التي نظمها حين علم أنه نعي في مجلس سيف الدولة ، تعبيراً عن مأساة الذل التي يعيش والغربة التي بلغت مداها . ثم أليست حملته فيها على سيف الدولة ، نوعاً من التفجر الداخلي ، كان يجب أن ينصب عليه لا على الأمير الحمداني :

بِـمَ التـعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كاس ولا سكن

* * *

لِمَ لم يفعل كافور شيئاً ، وهو يعلم أن المتنبي يهجوه في معرض مدحه . بل تصله أهاجيه فيه ، وهي من أقسى ما هجي به إنسان؟

كان يتجاهل تجاه الشعب . فكيف يعلن أن شاعره يهجوه؟.. لِمَ لم يقتل المتنبي ، ولو غيلة؟ لقد سلك إلى النيل منه مسلكاً أشد من القتل ، مسلك إذلاله وتمريغ كبريائه ، وقد دمّر نفسية المتنبي أبشع تدمير. من كان يقول إن أبا الطيب يبلغ حد الاسفاف في المطالبة بالإقطاع؟

ذاك واضح في القصيدة الأخيرة التي مدح بها كافور . كان كمن يطلق آخر سهامه! ولكن قوسه لم تكن القوس التي نعرف.

لا أستطيع تصوّر الأبيات التالية ، تصدر عن المتنبي الثائر. إنها لا تصدر إلا عن إنسان تفتتت كبرياؤه ، وتحطمت ذاته ، وتمرغت قيمه :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكـوتي بيـان عـنـدهـا وخـطـاب
وما أنا بالباغي على الحب رشوة
ضـعيف هوى يُبْغَى عليه ثواب
ومـا شئت إلا أن أدل عواذلي
على أن رأيي في هواك صواب

* * *

والآن، ما الذي يحملني على الاعتقاد بوجود صلة، غير الصداقة، بين المتنبي وأبي شجاع وعبد العزيز بن يوسف الخزاعي؟

في بعض شعر أبي الطيب ما يوحي أن أبا شجاع فاتكاً كان يصمر النيل من كافور، ولكن حذر كافور، ولؤمه ودسائسه، وحيله، حالت دون ما يطمح إليه، فمات كمداً وغيظاً، وفي ذلك يقول:

يموت به غيظاً على الدهر أهله
كما مات غيظاً فاتك وشبيب

وثمة تلميح إلى تلك المطامح:

بمصر ملوك لهم ما له
ولكنهم ما لهم همه

وتلميح إلى خوف كافور منه، وحسده إياه:

أيموت مثلُ أبي شجاع فاتك
ويعيش حاسده الخصي الأوكع

هذا، وكان كافور قد ولى أبا شجاع الصعيد، ليبعده عن الفسطاط، لأنه كان يخشاه، ويخاف منه على ملكه. ولكن أبا شجاع جاء الفسطاط، بحجة المرض، وهناك التقى المتنبي، فكانت بينهما تلك الصلة المتينة.

في تلك الفترة ثار بعض الجند بكافور، يريدون قتله، ولكنهم فشلوا، فلجأ قادتهم إلى ابن الأخشيد — وكان الأمير صورةً بينما كافور الحاكم الفعلي —، فأصر كافور على تسليمهم إليه، فسلمهم ابن الأخشيد، وأعدمهم كافور.

وخلال المدة التي أقامها المتنبي في مصر، كان يُراقب مراقبة دقيقة. وكان كافور يبث عيونه لمراقبته، ويدس عليه من يستنطقه، كابن عياش، وبعض القادة، فلا يبلغون مأرباً، لحذر المتنبي، ولمعرفته بهم. ولا بد أن ثمة من كان ينبه المتنبي إلى أولئك الجواسيس، ممن كانوا في حاشية كافور فمن هم؟ وما صلتهم به؟

كذلك، في تلك الفترة، يبعد الخزاعي إلى بلبيس، اجتناباً لخطره، والخزاعي هو الذي هرّب أبا الطيب من مصر، وقد مدحه لذلك بأبيات مطلعها:

جزى عرباً أمست ببلبيس ربها
بمسعاتها، تقررْ بذاك عيونها

ومنها:

وخص به عبد العزيز بن يوسف
فما هو إلا غيثها ومعينها

فلماذا يخاطر الخزاعي، وهو يعلم لؤم كافور وشدة انتقامه؟ ويعرف أن كافور «صفّى» عدداً من القادة، لمجرد الشك بأنهم يعارضون حكمه؟

لا أريد هنا أن أثير تفاصيل معاملة كافور المتنبي. وأختصرها بما يلي: الإقامة الجبرية في الجناح الذي أفرده له! «إعتقال احتياطي» تميز بمنعه مغادرة الفسطاط، حتى حين احتاج أبو الطيب إلى مال لإعالة حاشيته، منعه كافور الذهاب إلى الرملة لإحضار بعض ماله، خوف أن يرحل نهائياً، وبمزيد من الصفاقة والبرود، يسأله كافور عن موضع المال حتى يرسل من يعود به، ولم يسأله عن حاجته، ولا أعطاه ما يقوم بحاجته.

أما أسوأ ما كان يسيء به إلى أبي الطيب ، فهو العطاء الكلامي ، إذ كان يأمر خازن بيت المال ، على مشهد من جلسائه ، أن يعطيه آلاف الدنانير . فيخيل للحضور أن كرم كافور فاق كل كرم . ولكن المتنبي لا ينال درهماً واحداً ، لأن كافور كان يوصي خازن بيت المال ، ألا ينفذ أمر العطاء :

إني نـزلت بـكـذابين ضيفهم
عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

أكتفي بهذا القدر حول تلك المعاملة العجيبة ، لأنتقل إلى إحساس أبي الطيب الثوري . هل فقد كل نزعة ثورية ؟ هل ماتت في ذاته جذور الكرامة ، حتى بات يداري ، ويلجأ إلى الكلمة المغرية حيناً والكلمة الملغومة حيناً ، خلاصاً من أذى كافور ؟

كان المتنبي يفاجيء نفسه أحياناً بروح التمرد ، وكأنه يخاطب جثة ، كان يعلم هذا ، ولكنه في حالات خاصة ، كانت نفسه تصفو صفاء عجيباً ، ويعود إلى ألقه شعرياً ونفسياً وثورياً . هذا هو يقول في قصيدة مدح بها كافور :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه
ولو أن ما في الوجه منه حراب
لها ظفر إن كلّ ظفر أعده
وناب إذا لم يبق في الفم ناب

يغيّر مني الدهر ما شاء غيرها
وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب
وإني لنجم تهتدي صحبتي به
إذا حال من دون النجوم سحاب
غني عن الأوطان لا يستخفني
إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيش إن سامحت به
وإلا ففي أكوارهن عقاب
وأصدى فلا أُبدي إلى الماء حاجة
وللشمس فوق اليعملات لعاب
وللسر مني موضع لا يناله
نديم ولا يفضي إليه شراب

إلى أن يقول:

تركنا لأطراف القنا كل شهوة
فليس لنا إلا بهن لعاب
نصرفه للطعن فوق حوادر
قد انقصفت فيهن منه كعاب

وفي بعض الأحيان، ينحسر إلى ذاته، ويواجه انكساره، ويتشكى، كأنما يعتذر عن إثم يحس ألا مغفرة له:

لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكب
فكل بعيد الهم فيها معذب

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة
فلا أشتكي فيها ولا أتعتب

غير أنه يرجع إلى المصانعة والمداراة والمساومة ، مطالباً بتنفيذ الوعد ، بل راجياً ، ثم مادحاً بما كان يود أن يهجو به :

ولولا فضول الناس جئتك مادحاً
بما كنت في سري به لك هاجيا

* * *

نلقى للأمس ظلاً وحيداً ، يطالعنا في مديح أبي شجاع ورثائه ، وفي جوانب من أهاجي كافور ، وبعض ما نظمه في نفسه ، كقصيدة الحمى.

نسترد في مدائح أبي شجاع بعض صور النموذج الذي عرفناه في سيف الدولة . وصدق المتنبي في محبته ، وإيمانه بفضائله ، فهو المقاتل ، المقدام ، الكريم ، المدرك ، مالىء الدنيا بذاته.. وهذه بعض أبيات فيه :

القائد الأسد غذته براثنه
بمثلها في عداه وهي أشبال

القاتل السيف في جسم القتيل به
وللسيوف كما للناس آجال

* * *

لم يرض قلب أبي شجاع مبلغ
قبل الممات ولم يسعه موضع

كـنـا نـظن ديـاره مملوءة

ذهبـاً فمات وكـل دار بـلـقـع

* * *

عـدمتـه وكـأني سرتُ أطلبـه

فما تـزيـدني الدنيا على العدم[1]

* * *

أما الأهاجي فيسترعيك منها أمور :

١ — النقمة على كافور ، وقد بلغت حد الانتقام . وكأن المتنبي يرد به الاعتبار ، إلى ذاته . ولكنه ينبيء كذلك عن الجرح العميق ، وعن الإحساس بفداحة السقطة التي سقطها .

٢ — تركيز المتنبي على مقارنة صفات كافور بخصائص النموذج ، فيبدو الفرق الشاسع ، وبالتالي مدى تفاهة كافور :

جود الرجال من الأيدي وجودهم

من اللسان فلا كانوا ولا الجود

* * *

العبـد لـيس لحر صالح بـأخ

لـو أنـه في ثـيـاب الحر مـولود

* * *

---

(١) يذكرنا هذا البيت بقول أبي الطيب في سيف الدولة : «كل وجه له بوجهي كفيل» .

جوعان يأكل من زادي ويمسكني

لكي يقال عظيم القدر مقصود

٣ــ بلغت صورة كافور، في الأهاجي، من الكثافة والتركيز أن من المستحيل تصوّر كافور إلا من خلالها، ولو حاول ألف طه حسين أن ينزع عن كافور ألوانها الصارخة.

٤ــ لأول مرة يتناول المتنبي سواد كافور مطعناً، حتى ليبدو المتنبي عنصرياً. على أن ثمة أمرين لا بدّ من ذكرهما في هذا المجال: الأول أن تركيز المتنبي كان على عبودية النفس أكثر مما أشار إلى عبودية الأصل الأسود. الثاني: أن الموضوع ــ أي كافور ــ سعى إلى إذلال المتنبي وتحقيره بكل وسيلة.

ليس ما قلت تبريراً، ولكنه واقع. فقد بلغ المتنبي من الشعور بالضعة إلى حد الإرتداد إلى أبسط الانفعالات وأعنفها نزوة.

٥ــ التشديد على هجو البشر جميعاً، والعصر، وكل من ادعى أنه سام بنفسه أو بفضائله. لأن مجتمعاً يضمّ مثل كافور، لا سبيل إلى أن يكون فيه عزيز. فكافور اتهام للوجود نفسه:

وذاك أن الفحول البيض عاجزة

عن الجميل فكيف الخصية السود

* * *

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن

يسيء بي فيه عبد وهو محمود

* * *

سادات كل أناس من نفوسهم
وسادة المسلمين الأعبد القزم

* * *

تشابهت البهائم والعِبِدّي
علينا والموالي والصميم

* * *

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

٦— كثرة التحريض على التمرد، وإن جاء على نحو اتهام صارخ، كما في البيتين السابقين، والأبيات التالية:

أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصي إمام الآبقين بها
فالحرّ مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
فقد بشمن وما تفنى العناقيد

* * *

حصلت بأرض مصر على عبيد
كأن الحرَّ بينهم يتيم

* * *

وقد يكون التحريض مباشرة، ولو بمبادرة اغتيال فردية :

ألا فتى يورد الهندي هامته
كيما تزول شكوك الناس والتهم

٧ــ عودة المتنبي أكثر من مرة إلى التذكير بأهدافه، وبأنه لن يتراجع عنها مهما أصابه من أذى الدهر، أو تنكيل ناسه :

ويلمها خطة ويلم قابلها
لمثلها خلق المهرية القود
وعندها لذ طعم الموت شاربه
إن المنية عند الذلّ قنديد

* * *

لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها
وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيب من سيفي معانقة
أشباه رونقة الغيد الأماليد

* * *

ويترفع المتنبي عن أن يكون ناله ضيم، رغم محاولات كافور. وكأنما يريد أن يقول : حين يكون الصميم صحيحاً، يستحيل تشويهه :

إذا سرنا عن الفسطاط يوماً
فلقني الفوارس والرجالا

لتعلم قدر من فارقت مني
وأنك رمت من ضيمي محالا

* * *

أما ما قاله في شخصه فقليل — واستثني ما ورد في المديح والهجاء — ويختصر في قصيدتين مطلع الأولى :

بِمَ التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كاس ولا سكن

ومطلع الثانية :

ملومكما يجل عن الملام
ووقع فعاله فوق الكلام

يرد بالأولى على من زعم في مجلس سيف الدولة أنه توفي . وينال من الأمير الحمداني ، ويقسو في الطعن . على أن من الواضح أنه يحاول إلقاء مسؤولية فراقهما على سيف الدولة ، وتبرئة نفسه من ذلك .

غير أن أبرز ما في القصيدة شعور المتنبي بالغربة ، والضياع ، والفجيعة ، رغم افتخاره بنفسه في بيتين وحيدين ، افتخاراً مباشراً ، ولكنهما يشعران القارىء أنهما نوع من ردّ الاعتبار ، على ما فيهما من جمال .

أما القصيدة الثانية فتنبىء عن عزم ما . فأبو الطيب يشير إلى أمور ، تذكرنا بعهوده الأولى . فهو لا يقنع بما يقنع به الآخرون من نسب أو غيره ، ويسخر من نقص القادرين على التمام . ويلجأ إلى سيفه وحده — والسيف دائماً رمز القوة والحرب أو الثورة في سبيل تحقيق المطامح — ،

ويذكر بهواه يمضي إليه على مطايا لا يريحها قبل بلوغ الأرب ، ويذكر بماضيه :

فربتما شفيت غليل صدري
بسير أو قناة أو حسام

وكأنما يؤكد أنه سيشفي غليل صدره.

هذه القصيدة ، هي المؤشر على أن أبا الطيب ، رجع إلى قناعته القديمة : البدء بالذات ، ومن الشعب . أي البدء بالثورة ، وكل ما عدا ذلك هزر :

تعوّد أن يغبر في السرايا
ويدخل من قتام في قتام

* * *

فإن أمرض فما مرض اصطباري
وإن أحمَمْ فما حمّ اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكن
سلمت من الحمام إلى الحمام

وما أكثر ما يذكرنا هذان البيتان بقول سابق :

وأشجع مني كل يوم سلامتي
وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر

قلت إن هذه القصيدة مؤشر. وسنرى في الفصل التالي، أنه انطلق من منطلقه الأول، وكأن السنوات التي قضاها في مصر لم تكن، بل كأنها جلت ما كان في ذاته من غشاوة، ليستعيد صحة البصيرة والبصر...

* * *

— ٦ —

رحلة أبي الطيب من مصر، من أغرب الرحلات وأشقها. وقد وصفها في قصيدتين، مطلع الأولى:

ألا كــل مــاشيــة الخيــزلي

فــدى كــل مــاشية الهيذبى

ومطلع الثانية:

حتامَ نحن نساري النجم في الظلم

ومـا سراه على ساق ولا قدم

كما أن بعض المصادر أسهبت في وصف الرحلة، وذكرت ما تعرض له أبو الطيب ومن معه، من مخاطر. ومحاولات قتل واغتيال. وقد أوجزت تلك الأخبار. لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر. في تحقيق ديوان المتنبي. الذي صححه وقارن نسخه وجمع تعليقاته الدكتور عبد الوهاب عزام.

كان المتنبي قد رسم خطة الهرب مع الخزاعي، الذي ساعده بالأدلة، وبالهرب. وكان كافور قد شدد الرقابة عليه، وأسكن ناساً قرب جناحه،

ليحصوا تحركاته ، وكلف أناساً بالتودّد إليه ، علهم يطلعون منه على نواياه .

وقيل إنه رحَّل حاشيته قبله ، على أن تأتيه بالمال الذي أودعه عند ابن طغج في الرملة ، وواعدها على اللقاء في مكان معين.

وقيل إن ابن عياش ، حين تسلل المتنبي ليلاً ، يريد الرحيل ، تصدّى له ، فاضطر إلى قتله .

وأرسل كافور فرقاً تقتفي أثره ، فلقي فرقة منها ، فقتل بعض رجالها ، وأسر آخرين.

وراسل كافور عماله في كل المناطق ، وكتب إلى بعض القبائل ، يغريها بالمال والوعود ، ولكن المتنبي نجا من تلك المحاولات . وكثيراً ما غيَّر طريقه ليضلل من يتأثرون خطاه .

لا يعنيني هنا أن أسرد خبر الرحلة ، وما لاقى المتنبي فيها . ما يعنيني أنه قصد الكوفة لا غيرها .

كنت قلت إن في قصيدة «ملومكما يجل عن الملام» إشارات إلى ارتداد المتنبي إلى الينابيع الأولى . وعودته إلى الكوفة ، التي حرمت عليه من قبل ، تؤكد ذلك . فقد آلى على نفسه أن يعود إلى قاعدته الشعبية التي انطلق منها في البدء . ولم تكن عودته ليستريح ويريح .

مما يسترعي في القصيدتين اللتين وصف فيهما رحيله عن مصر ، أنهما تذكرانك ببداياته ، وبالقصيدة — البيان ، التي أعلن فيها الثورة . ففيهما يعلن عن خطته المقبلة ، ويؤكد ألا بديل للثورة ، وللقاعدة الشعبية ، ويصف رفاقه فإذا الوصف لا يختلف عن وصف رفاقه الأولين.

لكأن المتنبي ثار على ذاته ، وما علق بها من أدران قيامه في مصر ، وتمرد على عوامل السقوط ، ونفض غبار السبل الملتوية ، وأنكر الانحراف ، وتضليل النفس عن طرق بلوغ الهدف الحقيقية :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي
المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به
فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتِني ودوائي ما أشرتِ به
فإن غفلت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته
أجاب كل سؤال عن هل بلم

إذن ، من اقتضى حاجته بغير السيف — أي الثورة — فلن يحقق هدفاً . وهكذا يقرر العودة إلى منطلقه الأول ، وقد ثبت لديه أن النضال يبدأ من أرض الوطن — وهنا أقصد وطن قاعدته الشعبية — ، وكل نضال آخر ، مهما اختلفت التسميات ، لا جدوى منه — هذا إذا صحت تسميته نضالاً — .

تطالعنا في قصيدة «ألا كل ماشية الخيزلى» ، جوانب هامة :

١ — أن المتنبي ورفاقه لم يبلغوا الكوفة إلا بعد تعرض لمخاطر ، وخوض قتال . مما يشير إلى أن أكثر من طرف اشترك في محاولة قتل أبي الطيب . لا أعوان كافور وحده ، فحكمه لم يبلغ سواد الكوفة ، ولا ما دونها . ولا بد أنه اتصل بأطراف أخرى ، كان يعنيها ألا يبلغ أبو الطيب

الكوفة. والواقع أن أخبار رحلته في المصادر المختلفة، وفي قصيدته، تشير إلى خوضه قتالاً ضد أعداء، بعضهم يذكرهم بالأسماء، أما المتنبي فيذكر المواضع والأعداء دون تحديد، وذلك دون الكوفة مباشرة، فالدم لم يكن قد جفّ على سيوف فريقه:

فلما أنخنا ركزنا الرما
ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل أسيافنا
ونمسحها من دماء العدى

٢ــ أن المتنبي استعاد ألقه. رجع ثائراً متحدياً مخاطراً، عزم على الموت أو بلوغ الأرب. لذلك ينذر من بمصر والعراق، ويذكر بما عاد من أجله، وأنه سيفي بما صمم عليه:

لتعلم مصر ومن بالعراق
ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت
وأني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولاً وفى
ولا كل من سيم خسفاً أبى
ومن يك قلب كقلبي له
يشق إلى العز قلب التوى
ولا بد للقلب من آلة
ورأي يصدع صم الصفا

وكـل طـريق أتـاه الـفـتى
على قدر الرجل فيه الخُطَا

٣ـــ اتهام المجتمع بفراغه وتفاهته ، إذ يكفي وجود كافور فيه حتى يكون تافهاً ، فكيف إذا كان حاكماً ، وإذا اضطر مثل أبي الطيب إلى مدحه؟ أليس مديحه إياه هجواً للبشر أجمعين :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى
فما كـان ذلك مـدحـاً لـه
ولـكـنـه كـان هـجو الـورى

في القصيدة الثانية : «حتام نحن نساري النجم» تطالعك الأمور ذاتها ، من وصف الرحلة ، إلى التصميم على الثورة :

حتى غدوت وأقلامي قوائل لي
المجد للسيف ليس المجد للقلم

إلى إنذار الحكام بالقتل ، للخلاص من ظلمهم :

فلا زيـارة إلا أن تـزورهـم
أيدٍ نشأن مع المصقولة الخُذُم
من كل قاضية بالموت شفرته
ما بين منتقم منه ومنتقم

إلى تحقير الحكام ، فإنما هم أصنام ، على أن الأصنام تفضلهم لما فيها من عفة عدم القدرة ، وما فيهم من خسة ودناءة :

أسيرهـا بين أصـنـام أشاهـدها
ولا أشاهـد فيهـا عـفـة الصنم

إلى الإعتزاز بما كان يعتز به ، وخاصة الأهداف التي تعرض للعذاب والموت :

سبحان خالق نفسي كيف لذتها
في ما الـنفوس تراه غاية الألم
الـدهر يعجب من حملي نوائبـه
وصبر نفسي على أحداثه الحطم

هذا عدا ذكر أبي شجاع بأبيات قليلة ، تؤكد أنه أحبه صادقاً ، وارتبط به ارتباطاً وثيقاً ، لتشابه الخلق والمرمى.

غير أن أبرز ما في القصيدة ، وصف رفاقه ، الذي يعيد إلى الأذهان على نحو شديد الوضوح ، صورة رفاقه ، في قصيدته — البيان الثوري ، فمن هم هؤلاء الرفاق؟

هم رفاق وهبوا نفوسهم وأرواحهم للخطر ، لا يبالون ما يأتي به الآتي ، أكان موتاً أو فوزاً. إنهم نموذج الثوري الذي يعرف أن الخطر الدائم قدره ، وأنه بذلك وحده يملك قدره :

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا
بما لـقين رضى الأيسـار بـالـزلم

وهم مقاتلون من طراز عجيب ، يعرفون كيف يقضون على الفرسان :

بيض العوارض طعانون من لحقوا
من الفوارس شلالون للنعم
قد بلّغوا بقناهم فوق طاقته
وليس يبلغ ما فيهم من الهمم

وهم أعفة النفوس. فلا يشغلهم إلا الأهداف العظيمة:

في الجاهلية إلا أن أنفسهم
من طيبهن بها في الأشهر الحرم

فإذا طعنوا كانت طعنتهم بكراً. حتى ليصيح الرمح صياح الطير. من شدة الطعن:

ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة
فعلموها صياح الطير في البهم

هذا ولا بد هنا من التنبيه إلى أن أبا الطيب يذكر هدف الرحلة بوضوح. فهو منبت الكرم. أي الكوفة:

مكعومة بسياط القوم نضربها
عن منبت العشب تبغي منبت الكرم

* * *

وهكذا نلتقي وجه المتنبي الأصيل. مرة ثانية. وقد تخلى عن كل السبل إلا سبيل النضال. على الأرض التي أنبتته. وكانت منطلق ثورته الأولى.

ماذا حدث بعد أن لقي المتنبي ما لقي قبل أن يبلغ الكوفة؟ وبعد أن عزم على المقام في «منبت الكرم» — الكوفة — . والانطلاق ثانية من أرض نضاله الأول . وهو يعلم ما يقدم عليه من مخاطر؟

هل استعجل أبو الطيب إظهار قوته في الكوفة . أم أن الأحداث عجلت في ذلك؟

حدث تلك الفترة حدث مشهور . وهو هجوم القرامطة على الكوفة [١] . فقاد أبو الطيب رجال الكوفة إلى حربهم . [وقيل خرج في رجاله فحسب]. استمرت المعارك أربعة أيام كان النصر فيها جميعا حليف المتنبي . وقد قتل وأسر العديد من القرامطة.

ووقعت الأخبار [كما ورد في نسخة المعري] إلى بغداد . فسار أبو الفوارس دلير بن لشكروز في جماعة من القواد . فورد الكوفة بعد رحيل الخارجي (أو القرمطي)

---

(١) روي في بعض النسخ أن الهجوم شنه خارجي من بني كلاب. وقيل قرمطي من بني كلاب. والمرجح أن القرامطة من هاجموا الكوفة . فقد كانوا يسيطرون على معظم ما دون الكوفة إلى البصرة . فالخليج العربي. كما أنهم هاجموا الكوفة من قبل أكثر من مرة.

بعض الروايات تقول إن من قاتل القرامطة دلير نفسه. ولكن قصيدة المتنبي في مدحه لا تدع شكاً في أن المعركة انتهت قبل أن يترك دلير بغداد.

فإن تك من بعد القتال أتيتنا
فقد هزم الأعداء ذكرك من قبل

لقد فارق المتنبي الكوفة نيفاً وثلاثين عاماً. وما كاد يعود إليها، حتى قاد جندها وانتصر على القرامطة. فهل من باب الصدف، أنه كان الوحيد المؤهل للقيادة في الكوفة؟ لا أستطيع أن أصدق أن الصدفة تلعب هذا الدور الكبير. وأعتقد أن أبا الطيب لم تنقطع صلته بالكوفة يوماً. وكنت ذكرت أنه يوم كان لدى سيف الدولة، قال له في إحدى قصائده، إن الكوفة على استعداد لمواكبتك، متى نهضت لتحقيق الأهداف. وفي قصائده بعد رحيله عن مصر، ما ينبيء عن أن له في الكوفة أعواناً. وقد أشرت إلى ذلك في محله.

فإذا كان الأمر كذلك، كان ظهور المتنبي على مثل ما ظهر عليه من قوة، أو على الأقل، من التفاف أهل الكوفة حوله، كان هذا الظهور السريع خطأ، لعل أبا الطيب لم يكن له فيه يد.

على أن من شأن هذا الظهور أن ينبه إلى خطره، وأن يحفز ذوي السلطان في العراق — وهم البويهيون — على محاولة الحد من هذا الخطر، أو القضاء عليه.

والآن، لا بد من السؤال التالي: لِمَ مدح أبو الطيب دلير؟ ألأنه أهداه ثياباً ومالاً وجواداً منذ بلغ الكوفة؟

ومن هو دلير هذا؟

ما نعرفه عن دلير أنه كان قائد القوات البويهية في بغداد. أي الذي يمسك زمام الأمور، والسلطة الحقيقية، فالخليفة صنيعة سهل من صنائع البويهيين. غير أن من ولى دلير، عضد الدولة البويهي، أول من تلقب بالملك، وكان يزعم أنه من سلالة ملوك فارس. على أن عمه عماد الدولة كان أمير البويهيين، فلما توفي عمه، ولي فارس من بعده، وضم إليه باقي ما حكم البويهيون، وتصرف بالخلافة والخليفة كما شاء.

وإذا كان عضد الدولة الملك، فلماذا يقول المتنبي في دلير، في القصيدة الوحيدة التي مدحه بها:

فتمليك دلير وتعظيم قدره
شهيد بوحدانية الله والعدل

هل كان ذلك من باب المبالغة فحسب؟ ولكن المتنبي يعرف أن عضد الدولة هو الملك، فكيف يدعو إلى تمليك دلير؟ وهو أمر كان من شأنه أن يغضب دلير وعضد الدولة معاً، إذا علمنا العلاقة بين الملك وأتباعه، في فارس!

ترى كان دلير يدعي أنه سليل الأكاسرة الوحيد، وأنه أجدر من غيره بالملك؟ لقد مر تاريخ ملوك فارس بصراعات طويلة، نتيجة زعم هذا أو ذاك أنه سليل الأكاسرة وأنه صاحب الحق في الملك.

فإذا صح هذا التقدير حول دلير، فهل كان المتنبي يعلم ذلك عنه؟.. أعتقد أن هذا التقدير غير بعيد الاحتمال، بل هو المرجح عندي. وبالتالي فإن المتنبي شاء أن يلعب لعبة الأضداد الخطرة، فيغري دلير، ويرضيه،

وبالتالي يستبقيه دلير في الكوفة. ذلك أن المتنبي كان يعلم أنه يركب خطراً كبيراً بقدومه الكوفة والاقامة فيها. ولو كانت الإقامة، لمجرد الاستقرار لهان الأمر. ولكنه صرح، كما ذكرت من قبل، أنه راجع إلى الكوفة، مصمماً على ما كان صمم عليه من ثورة، منذراً القادة والأمراء. لهذا كان يتوقع أن يجلى عن الكوفة، أو ينفى منها، أو أن يضطر إلى قتال قد يقضي فيه. ولقد أشار إلى ذلك بوضوح في قصيدتيه، بعد بلوغ الكوفة.

على أية حال، من يقرأ قصيدة أبي الطيب في دلير، لا بد أن يلاحظ روح المساومة، والاسترضاء والإغراء.

كان المتنبي، في ما أعتقد، يعنيه البقاء في الكوفة بأي ثمن. ولو بالمساومة والاسترضاء. وأعتقد أنه بدأ عند ذاك يفقد الأرض الصلبة التي يقف عليها، أعني الأرض الثورية التي بشر بها منذ عزم على ترك مصر.

يبقى المتنبي في الكوفة، فترد عليه رسائل ابن العميد. ويرد على تلك الرسائل. ولكننا لا نعلم ما دار من حوار بينهما. وإذا بقيت لنا منها نتف، فلم تبق جميعها. ولعلنا، لو اطلعنا عليها، كنا أقدر على تبيّن أسباب الأحداث التالية في حياة المتنبي.

يخيل إلي أن ابن العميد، إنما راسله في شأن مدح عضد الدولة. ويبدو أن أمد الرسائل طال حتى وافق أبو الطيب على المسير إليه.

ثمة إشارات، على كل حال، تنبىء عن ذلك، منها ما ورد في بعض النسخ: «وجه أبو شجاع عضد الدولة في طلبه، ولم يمكن الاستاذ الرئيس — أي ابن العميد — مخالفته، فحمله مكرماً، فقال أبو الطيب يمدحه في شيراز... الخ»

أعتقد أن الأمر أبعد من أن يتم بمثل هذه البساطة. فإذا كان كذلك، فقد حدث بعد مقدمات طويلة، فلما قدم أبو الطيب على ابن العميد، وأطال البقاء عنده، استبطأه عضد الدولة، فكتب إلى ابن العميد في ذلك.

وأرى أن عضد الدولة لا يمكن أن ينسى مواقف المتنبي السابقة، ولا يغفر له قتاله مع سيف الدولة في الموصل لنصرة ناصر الدولة، وانكسار معزّ الدولة البويهي.

ولا يمكن أن يتجاهل خطر المتنبي إذا بقي في الكوفة. ولا نقمته على الأعاجم، وخاصة البويهيين، ولا حقده على الخلافة العباسية التي سماها دولة الخدم لأنها خاضعة للبويهيين.

كما أن المتنبي لم يكن لينسى كل ذلك. ولم يكن ليثق بعضد الدولة، ولا بابن العميد الذي كان وزير ركن الدولة، والد عضد الدولة.

فما حاجة أبي الطيب إلى قصد عضد الدولة خصمه اللدود؟ ألمجرد أن ينال أعطياته، ولم يكن بحاجة إلى مال؟ هذا في الوقت الذي بعث فيه سيف الدولة ابنه أبا المعالي محملاً بالهدايا إلى أبي الطيب، يرجوه أن يعود إلى حلب. أما كان سيف الدولة يغنيه عن مال الآخرين، لو أن المال وحده المطمع؟ وما كان مدح عضد الدولة ليغري أبا الطيب، وسيف الدولة، نموذجه، ينتظره ويراسله راجياً أن يرجع إليه.

لكل ذلك، أعتقد أن المتنبي سار إلى عضد الدولة مساوماً. يمدحه، ويرضيه، فيتيح له البقاء في الكوفة. وما كان له أن يستطيع البقاء فيها، إن لم يسمح عضد الدولة بذلك، على الأقل، قبل أن يستكمل المتنبي عدته للصدام.

ذلك كان خطأ المتنبي الثاني الفادح.

مر ببغداد، فلم يمدح الخليفة، ولا وزيره المهلبي الذي حاول المستحيل، فلما يئس، أهاج عليه الشعراء، كابن سكرة، وابن حجاج. غير أن المتنبي لم يجب تعالياً.

وقصد أرجان، وفيها ابن العميد، فمدحه وبقي لديه زمناً، ثم سار عنه إلى عضد الدولة.

في هذه الأثناء، كانت قصيدة المتنبي في سيف الدولة، التي أرسلها مع أبي المعالي رداً على دعوته، قد سارت مسير المثل، وفيها تعريض بعضد الدولة، ونيل بيّن من كافور.

يعرض بعضد الدولة في قوله:

كيف لا تأمن العراق ومصر
وسرايـــــاك دونها والخيول

لو تحرفت عن طريق الأعادي
ربط السدر خيلهم والنخيل

ودرى من أعزه الدفع عنه
فيهما أنــه الحقير الــذلــيــل

وفي قوله:

والمسمون بـــالأمير كـــثير
والأمير الـــذي بها المأمول

وفي قوله:

وسوى الروم خلف ظهرك روم
فعلى أي جانبيك تميلْ

ويندد بكافور جهراً :

من عبيدي إن عشت لي ألف كافو
ر ولي من نداك ريف ونيل

كذلك قصيدة المتنبي الثانية ، إذ أنفذ إليه سيف الدولة رسالة بخطه ، ومطلعها :

فهمت الكتاب أبر الكتب
فسمعاً لأمر أمير العرب

يعرض بالملوك قاطبة :

وما قست كل ملوك البلاد
فدع ذكر بعضٍ، بمن في حلب
ولو كنت سميتهم باسمه
لكان الحديد وكانوا الخشب

لا ريب أن القصيدتين نغصتا على عضد الدولة ، الذي عرف أنه عني بتعريض أبي الطيب. فكيف يسير المتنبي إليه؟

أعتقد أنه كان يخاطر بالبقاء. فإن خدع عضد الدولة عن حقيقة ما يضمر للمستقبل ، نجا ، وإلا فالموت يترقبه. وما أحسب أن المتنبي كان يجهل هذا.

من يقرأ شعر المتنبي في عضد الدولة ، يجده دون شعره في سيف الدولة وأبي شجاع . بل دون شعره في ابن العميد ، عامة ، مع ما في شعره به من تكلف واضح . بل أستطيع القول إن قصيدة أبي الطيب الوحيدة ، تلك المرحلة ، هي التي بعث بها إلى سيف الدولة .

ما لنا كلنا جوٍ يا رسول
أنا أهوى وقلبك المتبول

بل إن الجزء الأول من قصيدته : « مغاني الشعب » أجود من أبياتها في مديح عضد الدولة .

لنقارن بين بيتين من قصيدتيه في سيف الدولة وعضد الدولة ، يتضمنان معنيين متقاربين يقول في الأولى :

كلما رحبت بنا الروض قلنا
حلب قصدنا وأنت السبيل

ويقول في الثانية :

فإن الناس والدنيا طريق
إلى من ماله في الناس ثان

التركيب في الشطر الثاني من البيت الثاني واضح التكلف .

كما أن أبا الطيب ، عمد إلى الذم في معرض المدح ، في أبيات قليلة . ذلك أن عضد الدولة كان على معرفة باللغة والشعر ، لا ككافور . لذلك اقتصر المتنبي على أبيات قليلة ، استخدم فيها كل براعته لا خفاء القصد .

وقــد رأيت الملوك قــاطــبــةً
وسرت حــتى رأيتُ مـولاهــا

لعب المتنبي على كلمة «مولاها» التي تعني «السيد» و«العبد». وظاهر البيت أني عرفت الملوك كافة. وسرت حتى جئت سيدها. والمعنى المضمر. من مساوىء الزمن أنه ساقني آخر الدهر إلى المثول بين يدي عبدها. ثم يقول:

أبا شجاع بفارس عضد الدو لـة فـنـاخُسُرْ شَهـنشاها
أسامــيــاً لم تــزده مــعــرفــة
وإنما لــــذة ذكـــرنـــاهـــا

معنى البيت الثاني ظاهراً. أن ذكرنا لأسمائه. لا يزيدنا معرفة به، وإنما نطرب لذكرها.

أما معناه الحقيقي. فينطلق من اللعب على لفظين: لم تزده «معرفة»، و«لذة». والقصد: مهما أطلقت عليه من أسماء، فلن تعرفه إلينا، فهو مجهول بالتالي. فإذا ذكرنا هذه الأسماء فلنلهو بها. واللذة يمكن أن تكون من طرب. أو عبث. أو سخرية.

ولعل عضد الدولة لم يجهل هذه الحقيقة من قصد أبي الطيب.

ولعل مقدمة قصيدة «مغاني الشعب»، كانت ذات أثر سيء في عضد الدولة. «فالفتى العربي فيها غريب اليد والوجه واللسان». و«لو كانت دمشق ثني عنانه لبيق الثرد» أما في شعب بوان، فلا كريم يدعوه إلى طعام.

كل هذه عوامل مساعدة، بينما الأصل، أن أبا الطيب استدرج إلى مقتله. وقد أدرك ذلك منذ كان في شيراز عند عضد الدولة. و«التشاؤم» الذي أشار إليه الكثيرون من الشراح والنقاد، والذي تحفل به قصيدته الأخيرة: «فدى لك من يقصر عن مداكا» لم يكن نوعاً من الحدس أو التنبؤ، وإنما كان عن معرفة يقينية بما يدبر. ولهذا قال:

وأنى شئت يا طرقي فكوني
أذاة أو نجاة أو هلاكا[1]

لقد أدرك أبو الطيب أنه سقط السقطة الثانية المريعة، بمساومته عضد الدولة على البقاء. ربما كانت تلك الوسيلة الوحيدة لإمكان الاستمرار على قيد الحياة، أو الإقامة في الكوفة. ولكن الغاية لم تبرر الوسيلة.

أدرك أبو الطيب أنه أسفّ، وانحدر، وأنه ساق نفسه إلى حتفه. وكان خيراً له أن يرفض لقاء عضد الدولة، ولو كان في ذلك مقتله، أو نفيه عن الكوفة. أو على الأقل الرحيل إلى سيف الدولة أو غيره، إن كان البقاء فيها مستحيلاً.

يودع عضد الدولة، وقد عزم على العودة إلى الكوفة، وهو يعلم أن طريقه محفوفة بالمخاطر.

ولما بلغ «نيزع» بين الكيل والرصافة والصافية— وقيل بين الصائفة

---

(١) ورد في بعض النسخ: وأيّاً شئت... الخ.

ودير العاقول ، وقيل غير ذلك — لقيه جماعة على رأسها فاتك الأسدي ، ومعه قوم من بني أسد ، — وقيل من بني كلاب — فقتلوه .

أما خبر مقتله ، فقد نقل عن أبي نصر الجملي — وقيل : الجبلي ، والجلبي والشلبي — نقله الخالديان ، وهما خصما المتنبي لدى سيف الدولة . وهما اللذان أتيا الأمير الحمداني وقالا له : «تحتني بالمتنبي احتفاء أكبر من قدره . دلنا على قصيدة له نعارضها ، وسنريك أننا نصنع خيراً منها» . فدلهما على واحدة . فلما بلغا من معارضتها قول أبي الطيب :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق
أراه غباري ثم قال له الحق

قال أحدهما : «والله لقد لها بلحيتينا !» .

أما أبو نصر ، فلا نعرفه إلا من خلال وصف الخالديين : «وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية ، وله فضل وأدب وحرمة» . ذلك أنهما يزعمان أنهما كتبا إليه ليطلعها على مقتل المتنبي وسببه . فكتب اليهما يصف ذلك .

ما صلة أبي نصر بأبي الطيب؟ ليس في حياة أبي الطيب ما يشير إلى أية علاقة بين الاثنين . ثم إن أبا نصر ، لا يذكر إلا أنه تلقاه وأنزله في داره . فهل تقصده أبو الطيب ، أم أن أبا نصر كان يرقب الطرق ليستضيفه ، فيتصل بمن يجب ليعدوا العدة لمقتله؟

ثم إن من قتلوا أبا الطيب ، سواء كانوا من بني أسد ، أو من بني كلاب ، — حسب الروايتين — كانوا من أعوان عضد الدولة . وقد حاربهم سيف الدولة ، ونظم المتنبي في ذلك . بل إن أبا الطيب رجاه في

أن يعفو عن أسرى بني كلاب ففعل. وقصيدة أبي الطيب في ذلك معروفة :

بـغيرك راعـيـاً عـبث الـذئـاب
وغيرك صــارمــاً ثلم الضراب
وتملك أنــفس الثقلـين طـراً
فـكـيـف تحوز أنـفسـها كلاب

كذلك القصيدة التي مطلعها :

تـذكـرت ما بين العذيب وبارق
مجر عـوالـيـنـا ومجرى السوابق

وقصيدته :

طوال قـنـا تـطـاعنهـا قصـار
وقـطـرك في نـدى ووغـى بحار

فهل من قبيل الصدف أن تتلتي كل هذه العوامل دفعة واحدة وبمحض الصدفة؟ وهل من قبيل الصدفة كذلك أن يكون قائد عملية الاغتيال من بني أسد، أقصد أبا شجاع فاتكاً الأسدي؟ بل لقد كان الأمر معداً لاغتيال أبي الطيب ، في وقت لم يكن معه أحد من رجاله ، غير مفلح العبد الذي رباه وثقفه وحرره ، ومحسد الذي يقال إنه ابنه ، ولعله ابن رفيق من رفاقه ، تبناه ورباه.

يزعم أبو نصر أنه لم يكن حاضراً وقت مقتل أبي الطيب ، ولكن وصفه الحادثة يؤكد أنه كان شاهد عيان ، وأنه كان يشرف على التنفيذ. فهو يصف تفصيل المعركة ، والوقت الذي استغرقته ، ومن قطع رأس أبي

الطيب بعد مقتله ، وكيف قال له فاتك الأسدي ، حين فكر أبو الطيب بالتراجع والهرب. أأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ثم إن أبا نصر يصف كيف جاء اليوم الثاني ، فوجد الزنابير تدخل من محجري أبي الطيب وتخرج من أنفه وفمه ، وكيف دفنه.

أما الحوار الذي يسوقه أبو نصر ، فإذا صح ، فإن معناه أن أبا نصر استطلع أبا الطيب عن الطريق التي اعتزم سلوكها. وما كان أبو الطيب يبوح يوماً حتى لخاصته ، بما يسلك من الطرق في أسفاره ، ولطالما بدل طرقه ، كما فعل حين قدم من مصر ، احترازاً وتحسباً.

كل ذلك يؤكد أن أبا نصر مشترك في عملية الاغتيال والاعداد لها[1].

ما يعني على كل حال موقف المتنبي الأخير. تشير كل الروايات إلى أن أبا الطيب كان قادراً على النجاة لو لم يقدم. ولكنه حين قيل له ، أأنت القائل : «الخيل والليل...» أقدم ، لأنه لم يشأ أن يتراجع عن قول قاله. وهنا تتجلى علاقة الكلمة بالفعل ، في مواقف الأحرار. أقدم وهو يعرف أنه مقتول. إذ كان من مع فاتك خمسين ، وقيل ثلاثمائة. وقد قاتل «من ضحوة إلى الأولى» كما تقول الرواية. حتى كلّ ، وسقطت فرسه تحته.

أما قصة هجاء ضبة ، فقصة ملفقة ، لتغطية المؤامرة لاغتيال أبي الطيب ، أنكرها أبو العلاء المعري ، وأنكرها كثير غيره.

---

(١) تقول بعض الروايات إن الشريف ناصر هو الذي وجد جثة المتنبي ودفنها. فمن هو الشريف ناصر؟ أعتقد أن ثمة التباساً بين ناصر وأبي نصر. ساقه تناقل الرواية.

وتلفيق مثل هذه القصص ، معروف في كل العصور . فلا يمر زمن في أيامنا ، إلا وتطالعنا قصة من هذه القصص.

والأدلة على ذلك كثيرة. منها :

أن أبا الطيب أبى أن يرد على هجاء شعراء معروفين كابن سكرة وابن حجاج ، وقد حرضها على هجائه وزير الخليفة المهلبي ، لأن المتنبي رفض مدحه . وحين سئل : لِمَ لا تجيب . قال : لقد قلت ذات يوم :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول

فكيف يهجو ضبة ، وهو من تذكر الروايات تفاهته وحقارته ، لمجرد أن قوماً اعترضوا المتنبي وسألوه أن يهجو ضبة ، لنيله من أعراضهم هذا بينما رواية أبي نصر تقول : «أما شرح الخبر فإن فاتكاً هذا صديق لي — وهذا مما يؤكد علاقة أبي نصر بالاغتيال — وهو كما سمي فاتك لسفكه الدماء واقدامه على الأهوال ، فلما سمع القصيدة التي هجا بها ضبة ، اشتد غضبه ، ورجع على ضبة باللوم ، وقال له : كان يجب ألّا تجعل لشاعر عليك سبيلا ... » فما علاقة أبي الطيب بكل هذا ، ولم ترك ضبة له سبيلا عليه ؟

ثم إن القصيدة من الضحالة الشعرية ، إلى حد لا يمكن أن تكون معه من نظم أبي الطيب . فقد كان شعره ، حتى في مرحلة غرزمته ، أجود منها . فكيف أسف أبو الطيب هذا الاسفاف؟

لا أرفض القصة فحسب ، بل أرى فيها مستنداً يدل على أنها وسيلة عضد الدولة وأعوانه لتغطية الاغتيال .

* * *

ما يعنيني من التشديد على مسألة اغتيال المتنبي ، أنه تصفية جسدية ، حسم بها عضد الدولة خطر استمرار بؤرة ثورية في الكوفة ، من شأنها أن تهدد هيمنة البويهيين.

وما يعنيني كذلك ، موقف المتنبي الأخير. إنه موقف بطولي ، يختار فيه البطل ، دون تردد أصعب الخيارات. الخيار الذي ينسجم مع خلقه الأصيل ، ويرفض ما يناقض مبدأ أو قولاً صدر عنه ، معبراً عن موقف أساسي من الوجود. كان المتنبي قادراً على الهرب ، ولكنه حين واجهه فاتك الأسدي بقول قاله من قبل مفتخراً بفضائله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أبى أن يتراجع ، بل أقدم مختاراً ، وهو يعرف أن المصير هو الموت وحده. وكأني بأبي الطيب استجمع كل ذاته وفضائله ، وتحدى بأصالته كل زيف وكل انتهاك لمعنى الخلق الثوري ، كأنما يكفر عن خطيئتيه الكبريين : قصده كافور ، وقصده عضد الدولة.

لقد بدأ حياته ثائراً ، وختمها ثائراً ، حين مات ميتة الثوار الكبار. مات شهيد ما آمن به ، وما حمل نفسه عليه ، وناضل من أجله ، طوال عمر لم يعرف فيه لذة ، إلا لذة الايمان بالثورة ، وقضية الأمة الكبرى.